الورقة الثالثة عشرة

الأكثرُ وَجَعًا.. ليسَ ما لم يَكنْ يَومًا لنا،
بل ما امتلكناهُ لحظة من الزَّمَن..
وسيَظلُّ يَنقصُنا إلى الأبَد.

أحلام مُستغانمي

كأنَّما الحَيَاة.. معَ فواجِعِها ومآسيها،
تبقى نُكتة هائلة..
لا تستحِقُّ بَعدَ البُكاءِ غيرَ الضَّحِك!

جبرا ابراهيم جبرا

يَطالبُ الإنسَانُ بالثّأر من عدُوِّهِ تَحقيقًا للعدالة.. هكذا يَظُنّ.

تحقيقُ العدالة.. حُجَّةٌ رُبَّما.. وَجَوهرُ القَضيَّة هو.. التَشَفِّي!

بيدَ أنَّ الأنظمَة القضائيَّة والقوانين والمَوَاثيقَ الدُّوَليَّة عاجزَة عن أن تكونَ عادلَةً.. فكيفَ بسَورَةِ غضَبٍ تَسعى لأخذِ ما تَظنُّهُ حقًّا لها بأسلوبِها الخاصّ؟! القانونُ الذي فَبرَكَه البَشَر ليسَ كاملاً! ولا يَنتجُ عنِ الشَّبيهِ إلاّ الشَّبيه به. القانون من نِتاجِ العَقل، والثأرُ إفرازاتٌ غَريزيَّة، وإذا كانَ العَقلُ عاجزًا فهلِ الغريزَةُ قادِرَة؟ إنَّ الانتقامَ لا

يرتكزُ على مُعطًى عِلميٍّ مَنطِقيّ، لأنَّ المُبادِرَ الأوَّلَ في الأذِيَّةِ ليسَ مَحقوقًا مئة بالمئَة.. وعلى من تأذَّى أيضًا جزْءٌ كبيرٌ منَ المَسؤوليَّة. الثأرُ مَخلوقٌ هَجينٌ مُرَكَّب: عَقلٌ وألَمٌ وَغَريزَة.. والمُرعبُ أنَّ الثَّلاثةَ مُتساوون فيه! هو كيمياءُ ألَّفَت عناصرَها المَرَاراتُ الشَّخصِيَّة مَمزُوجَةً بمَوروثاتٍ ثقافيَّةٍ عُرْفيَّة بيئيَّة. وغالبًا ما يُخلِّفُ هذا المَخلوقُ الغريب.. الثّأر.. مِن سُلالتِهِ، طابورًا يَجُرُّهُ وراءَه كالفاكوناتِ المَشكولةِ بالقاطرَةِ الأولى. وهل يقفُ الثأرُ عندَ فِعلٍ ورَدِّ فِعل؟! فَرَدُّ الفِعلِ يُفضي هو الآخر إلى رَدِّ فِعلٍ آخر.. وربَّما رَدَّات فِعل.. وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. من هنا الانتقاماتُ المُمتدَّة لسَنَوات.. وربَّما لعُقودٍ طويلةٍ، فتَمسُخُ حَيَاةَ المَرءِ جَحيمًا لا يُطاق. لو تركَ الإنسانُ أمرَهُ ليَدِ الأقدار.. وهي لعمري، بارعَةٌ حَكيمةٌ في مَسكِ دَفاترِ انتِقاماتِ البَشَر، فإنَّها تُحسنُ جيِّدًا في إعطاءِ كلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه.

هذا وديناميَّاتُ تَطبيقِ الثّأر تُرهقُ الذَّاتَ بنَشَازاتِ وَعَكَرِ العاطفةِ المُتحوِّلَة معَ الزَّمَنِ إلى أورامٍ خبيثة.. و"مُربَّعاتٍ نَفسيَّةٍ" ماردَة. هذا والمُنتقمُ ليسَ البتَّة أفضلَ من البادِئ.. كلاهما مذنبٌ.. كلاهما شِرِّير.. وكلاهما عَبدٌ مَسوقٌ بينَ سَبيَّاتِ الحِقدِ المُزمنة. إن هي إلاَّ دَوَّامةٌ.. بل هي آلةٌ عَمْيَاءُ.. تَدُورُ وتَقِفُ بإرادَتِنا.. وإلاّ ستُجهزُ على بُقيا أخلاقِ فينا، وتَرَسُّباتِ فكرٍ حَضَاريٍّ في زمَنِ العَولمَةِ، والحداثةِ الفائقة، والتنَوُّعِ، والقريةِ الكونيَّة، وقبولِ الاختلاف.

وإذا زَحَفَتْ آكلةُ الثأر إلى دِيارِ الحُبّ.. فهي لا تُبقي على أخضَرَ ولا يابس. الحُبُّ جنَّةٌ.. هو ظِلُّ السَّمَاءِ على الأرض. إنَّه الوَرْدَةُ التي أهدَتها الألوهَةُ للانسان. فإذا بالكائنِ البشَريِّ، كعَادَتِه، وفي حَمَاقةِ الغريزَةِ وكبرياءِ الشَّهوَة، مسَخَ هداياهُ الرّائعَة دُمًى مشَوَّهَةً وفزَّاعات. الحُبُّ عِطرٌ ليَشُمَّهُ العُشّاقُ فَيَنتشُوا بسِحرِ الوُجود.. فإذا بهِم يُقَطِّرونَ فيه رُحاقاتٍ من عبَثِ أحقادِهِم المُرَّة. الحُبُّ عناقيدُ بَهجَةٍ طيِّبَة تَفرُطُها أحيانًا دَبابيرُ الغَطرَساتِ بقَسْوَة، فيُفوِّتَ المَرْءُ على نفسِهِ العُصارةَ الرُّوحيَّةَ النَقيَّة. الحُبُّ دَفقاتُ يُنبوعٍ عَذبِ المِيَاهِ والنَّغَمَات، فإذا بتَلوُّثاتِ الثأرِ تُحيلُه سَيلاً منَ الجَرَاثيمِ الفتَّاكَة. ولكنّ هناكَ نَوعًا منَ الحُبِّ.. عَميقٍ.. عاصِفٍ.. إلهيّ! هو ذاكَ الذي يُخالطُ سُمُومَ الحَياةِ وشُرُورَها ليُحيلَها دَوَاءً للرُّوحِ شَافيًا.

*****

لندن أيلول ٢٠١٦.

لقدِ انتقلَ صَخر سويدان من صيغةِ الغائب إلى صيغةِ المُتكلِّم.. في سَردِيَّاتِه المُشوِّقَة التي يتلوها على مسامِعِ المُحقِّق شَكيب مدَوَّر، على شُرفَةِ هذا الأخير فوقَ بُقعَةٍ تاريخيَّةٍ ساحِرَة من نهر التّايمز العَريق، في ذلكَ الفندق ذي الفانتازيَّاتِ التَقليديَّة، انسِجامًا معَ الهندَسَةِ المُدُنيَّةِ التي هو قابعٌ بينَ ظَهرَانيها.

قامَ المُحقِّقُ شَكيب من مكانِهِ على الكنبَة، ووضعَ قطعتَين من الثَلج في كأسِ كلٍّ منهُما صَخر وهو، وَسَكبَ الويسكي في الكأسَين، ثمَّ عادَ إلى مكانِهِ وأشعلَ سيكارَة، وأخذَ يُفكِّرُ في صَوتٍ عالٍ:

– إذًا صَخر سويدان هو ابنُ منير سويدان سائِق غسّان الجُردي، بالتبَنِّي. وَغَيث الرّاسي الاقتصاديُّ المَعروف وأحدُ أقنومَي ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥ هو والدُ صَخر الحَقيقي؟!

رَشَفَ صَخر رَشفةً من كأسِهِ، وأجاب:

– تلكَ هي نصفُ الحَقيقَة.. والنِّصفُ الثاني...

– مَنْ هيَ والدتُهُ؟! قاطعَ المُحقِّقُ كلامَ صَخر. أتُراها الأقنومُ الثّاني في تلكَ الحادثَة الغَريبَة؟

– لا تكن لَجوجًا سيِّدي الكريم.. الكلامُ يأتيك.

– للمَرَّةِ الأولى أجِدُ نفسي هكذا "قصيرَ الأناة". حسنًا يا صَخر تابع حِكايتَك.

وتنحنَحَ صَخر في مكانِه، ومَجَّ مَجَّةً من سيكارتِه ووضعَها على المِنفضَة، ثمَّ أمسكَ بعضَ البزورات من الصَّحنِ أمامَه وتناولَ حَبَّة.. وشرَعَ يتَحدَّث:

– خرَجتُ منَ السِّجنِ أيُّها المُحقِّق بَريئًا. وما عدتُ سمِعتُ شيئًا عن تلكَ الجثَّةِ التي رأيتُها على شاطئِ الصيَّادين. ومُنير سويدان أبي الذي تبَنَّاني أحبَّني بعُمق.. وضَحَّى بالكثير لأجلي. كنتُ رَمَقَهُ الوجودِيَّ الأخير.. بل حَبلَ السُرَّةِ الذي يربطُه بالحَياة. علِمتُ لاحقًا، أنَّ غسّان الجُردي الذي كانَ يعطفُ عليه ويَرعاه، هو مَن سَعَى لخُرُوجي من السِّجن، وهو السَّاعي أيضًا في طلاقِ مُنير من زَوجتِهِ، وكانتْ عَشيقَتَهُ والجَميعُ يعرفُ هذا. لقد قالَ لي أبي مُنير ذاتَ يَوْم.. وهو يَبكي بكاءَ الأطفال:

– هذِه المرأة الجَانحَة يُضاجعُها غَسَّان ويُغدِقُ عليها، وغسّان أيضًا يدفَعُ للمُحامي مالَ عَمليَّةِ طَلاقي المَنحوسَة منها، وهو أيضًا يُعطيني مالَ أجرَتي كسائق عندَه! أرأيتَ يا بُنَيّ.. المالُ هو كلُّ شَيْء.. المالُ عَصَبُ الحَيَاة.. المالُ قوَّةٌ لساعِدَيك.. المالُ زَأرَةٌ في وَجهِ من يتطاولُ على حقِّكَ.. المالُ هَيبَةٌ وسَطوَة.. بل هو السِّحرُ الذي يَجعلُ منكَ إلهًا!

لقد كانت حالةُ منير سويدان النَّفسيَّة مُزرية.. فهو يشعرُ في ذاتِهِ بأنَّه نكِرَةٌ منَ النَّكِرات. عدُوُّهُ الذي دَمَّرَ بَيتَهُ وحَياتَه هو وَليُّ نِعمَتِه! ولا يَقدِرُ أن يتَحَرَّرَ منه البَتَّة. كانَ منير يشعرُ بالذُلِّ والمَهانَةِ بينَ النّاس، وغَسَّان يَختالُ حاسبًا نفسَه فاتحًا عَظيمًا والآخرين حَشَرات مِن حَوله. أدركتُ في ذلكَ الحين أنَّ الضّعفَ لا يُطعِمُ خُبْزًا. القوَّةُ وَحدَها هي القيمَةُ العابرَةُ للعُصُورِ والمُجتَمَعاتِ والثَّقافات.. سُبحانَها لا حَوْلَ إلاَّ بها الحَيَّة الباقية! القويُّ يَصنعُ تاريخَه، والضَّعيفُ يَستَسلمُ لقدَرِهِ. القويُّ يُهندِسُ السِّيناريوهات والضَّعيفُ يؤدِّي دَورَهُ فوقَ خَشبةِ المَسرَح. القويُّ يأمُرُ الأحداثَ والضَّعيفُ يقولُ: "سَمْعًا وَطاعةً يا مَوْلاي".

وَمَرَّتِ الأيَّام. وحدَثَ طلاقُ منير من زَوْجتِهِ بصَمتٍ غيرَ عابئٍ بهِ أحَد. وكانَ تسهيلُ وتسريعُ الطّلاق خيرَ مُساعدَةٍ قدَّمَها غَسَّان لسائقِهِ.. ولسانُ حالِ هذا الأخير "شُكرٌ وَمَمنونيَّة". وأمَّا أنا فعُدتُ إلى متابَعةِ الدِّراسَة. وكانَ صَعبًا جدًّا، بعدَ هذا الانقطاع الطّويل، العَودَة إلى اللّحاقِ بما فاتَني. أنهَيتُ البكالوريا وَدَخلتُ الجامعَة، وبقيَ

مُنير سويدان بلا زَوَاج. لقد كانَ طبَّاخًا ماهرًا. وكانت إليج مُجبّر تأتي مَرَّتَين في الاسبوع لأعمالِ التَّنظيف في البَيت. أحيانًا كانَ يأتي رَشيد أخو مُنير، وكنتُ أناديهِ عَمِّي، جالبًا معه بعضَ الأطعِمَةِ والحلويات التي كانت تعمَلُها زَوْجتُه. وأحيانًا كانَ يُرسلُها معَ خادمتِه أو ابنِهِ أو ابنَتِهِ رَشَا! رأيتُ رَشَا للمَرَّةِ الأولى عندما كنتُ جالسًا على الشُّرفةِ المُطلَّةِ على مَدخَلِ مَنزلِنا. كنتُ أستَعِدُّ للامتِحانات. وكانت هي تقودُ سيَّارةَ أبيها، فركَنَتها أمامَ المنزل تحتَ الشَّجَرة. أقولُ رأيتُها للمَرَّةِ الأولى لأنَّ علاقة أبي منير بذَويهِ كانت فاترةً، والتواصُل شبه معدوم ما خلا بعضَ المناسباتِ القليلة. والسَّببُ هو زَوجتُه وعلاقتُهُ بهذا السِّياسِيِّ الغريبِ الأطوار وَغير المَحبوب. رَأيتُها تهبطُ منَ السيَّارَةِ بما يُشبهُ تَجَلِّيًا روحيًّا! حدَثَ تغيُّر ما عميقٌ في داخِلي لا أدري ما هو. السيَّارَةُ سيّارةُ رَشيد عَمِّي، أعرفُها رأيتُها من قبل.. وأمَّا هذه الصَبيَّةُ الرَّقيقَة..! فقادَني الاستنتاجُ أنَّها رَشا التي سَمِعتُ عنها ولم أرَها بَعد. قمْتُ واقتَرَبتُ وأنا على الشُّرفة. رَأتني هي. ثمَّ دَارَت إلى ما وَرَاء السيَّارَة وفتحَت صُندوقَتَها، وراحَتْ تُخرجُ الأغراض. ثمَّ تراجَعَت وَنَادَتني:

– ستأتي وتساعدُني يا صَخر.. أم انَّكَ باقٍ مَكانَك؟

كانت تعرفُ اسمي. هي أيضًا سمِعَتْ عنّي من رَشيد والدِها. وحكايةُ منير سويدان من الحِكاياتِ التي ما إن تجتمِعُ العائلَة حتى يَتَجاذبونَ أطرافَ جَديدِها وتَطوُّراتِ فصولِها الأليمَة. بالتأكيد كانوا يقولون عن مُنير أنَّه "معَتَّر.. طيِّب القلب.. وزَوْجَتُهُ الفاجرَة مَسَحَتْ شَخصيَّتَه وركَّبَتْ له قرونًا"، وأنَّه "كلب حِراسَة عندَ غَسَّان الجُرْدي". ولكن.. ما إن سَمعْتُ اسمي يَنسَابُ على فَمِ رَشَا انسيابَ موسيقًى، أو كإيقاعِ زَقزَقةِ العَصَافير في صَباحٍ رَبيعيٍّ مُنعش عندَ نقزَةِ العَيْنَينِ مِن حُلُمٍ لطيفٍ جَميل.. أجَبتُها:

– تكرَمْ عْيونِك هالحِلوين.

وَقفزْتُ فوقَ درابزون الشُّرفَة وجئتُ إليها. قالت:

– أنا رَشَا ابنةُ رَشيد يا صَخر.. ألا تعرفُني؟

– بَلى.. أعرفُكِ يا رَشَا. أجَبت.

وقفنا أمامَ صُندوقةِ السيَّارَة.. لثوانٍ وكأنَّها دَهر. تشابكَتِ العيُونُ الأربَعَة، وغُصْتُ في ملامِحِها وعَينَيها الطيِّبَتَين. وعَرَفتُ أنَّها هي أيضًا كانت تقرأ في وَجهي حِكايةً ما.. ألمًا ما جَميلاً.. بل تاريخًا.. كانت تبحَثُ عَمَّا أوصَلَ إليها بَريدُ القِيْلِ والقال عَنِّي. سَألتْني:

– كيفَك يا صَخر؟

– أنا الآن.. صِرْتُ بحَالةٍ أفضَل.

فابتسَمَتْ.. وعَيناها قنديلانِ مُعلَّقانِ في سَقفِ هُمومِي. وأضافَتْ بصَوْتٍ دافئ:

– خيرٌ إن شاءَ الله.. مِمَّ تشكو؟

– الدُّرُوسُ يا رَشَا.. دروسُ الامتِحاناتِ مُرهِقة. قلت.

– يَعطيك ألف عافيه. نشالله تنجَح. عرَفتُ أنَّكَ شاطر ومنَ الأوائل.

ثمَّ انحَنَتْ.. وأمسكَتِ القُفَّة المَليئَة بأنواعٍ منَ الأطعِمَة.. وقالت:

– ما في شي من قيمتكون.. لقد أحَبَّتْ أمِّي أن ترسِلَ هذا الطَّبيخ.. كبّة بالصَّينيّة وتبُّولة ووَرَق العنب ومِحشي كوسا وحبِّة حلو صفوف وزنود السِتّ وقالب حلوى.. وزيتون وكبيس وغيرَه لا أدري ماذا... خذ هذِه أنت.. وأنا سأحمِلُ هذه.

قلتُ لها مندهِشًا:

– هذه مونة الشَّتويّة؟!! دَائمًا تفكِّرون بنا، وأمُّكِ إمرأةٌ عَظيمَة. دَعيني أحمِلْ هذه أيضًا عنكِ. فقالت وهي تبعَثُ في نظرَتِها رسالة:

– هكذا.. أنتَ تقولُ لي شُكرًا لكِ يا رَشَا معَ السَّلامَة.

– لا لا.. أنا أرَدْتُ أن أريحَ يدَيكِ لكي تُحَضِّرا لنا كبَّاية عَصير وفنجانَ قهوة طيِّبًا.. كأناملِكِ الحُلوَة تمامًا.

ثمَّ دَخلنا ووَضَعنا الأغراضَ في المَطبَخ. وأخرَجْتُ زُجاجَةَ ماءِ الوَردِ لأحَضِّرَ لنا كوبَين.. فأمسكَتِ القنِّينةَ من يَدي وقالت:

– هاتِ الآنَ دَوري أنا.

حَضَّرنا كوبَي العَصير بالثلج وخرَجنا إلى الشُّرفةِ وجَلسنا. ولم نكَدْ نتَجَاذبُ أطرافَ الحَديث حتى وَصلَ أبي منير. ركَنَ سيَّارَتَه بجانبِ سيَّارَةِ رَشَا وخرَجَ إلينا. نهَضَت رَشَا وَسَلّمَت على عَمِّها وقبَّلَتْه وقبَّلَها:

– كيفَك عَمّو؟

– أهلا رَشَا.. كيفِك حَبيبتي.. وكيف البابا والماما؟

وجود مُنير مَعَنا كانَ تشويشًا كبيرًا على كيمياء رُومنسيَّة كانت في طريقِها إلى التَكوُّن، وستَتكوَّنُ لاحقًا. وعندَما قامَتْ رَشَا تريدُ أن تعمَلَ لنا القَهوَة، لم يقبَلْ أبي فحَضَّرَها هو بنفسِه. ورُحنا نَحسُوها. وكانَ أبي يُخاطبُنا ويتحدَّث.. وأنا ورَشَا لا نَعي ما يقول. كنّا مَشغولَين بتَفسير التَّرَاسُلاتِ المَكُّوكيَّةِ المُشفَّرَة بينَ العُيُونِ الأربَع والكِنايات. ثمَّ أنتهَينا من قهوَتِنا ووقفَتْ رَشَا.. شَكرَناها على الطَّعام والحَلاوين وَوَدَّعَتْنا، وبَقيتُ أنا على الشُّرفة أراقبُها وهي تخرجُ وتركبُ سَيَّارَتَها وتنطلق. وعندَما عبرَتْ من أمامي، لوَّحَت لي بيَدِها، كأنَّها ترسِلُ إليَّ نسمَةَ حَيَاة.. كما فعَلَ الله معَ آدَمَ في جَنَّةِ عَدن، ونادَتْ:

– باي صَخر. إلى اللِّقاء.

كانَ هذا اللّقاءُ تُخمًا عازلاً بينَ الوَضعيَّتَين النَّفسِيَّتَين عندي، قبلَه وبَعْدَه. بُعَيد لقائي الأوَّل برَشَا رُحتُ ألتقِطُ صورَ الوَجودِ والكائنات بعدَسَةِ الحُبّ.. فإذا هي رائِعَة! كأنِّي بالحُبّ هو التَّتبيلةُ الوَحيدَة التي يَجبُ استِخدَامُها لجَعلِ يَومِيَّاتِنا ألذَّ وأطيَب. الحُبُّ أناملُ أفروديت وهي تمسَحُ العُيُونَ النَّازفة التي لم تكن ترَى غيرَ أشكالٍ وألوانٍ مُتداعيَةٍ مُفكَّكَة ضَبَابيَّةٍ هُيوليَّةِ التُّخوم. منذُ أشرقَ وَجْهُ رَشَا في ظلمَةِ كياني.. بدأتُ أشعرُ بأنِّي كائنٌ حَيّ.. بل ها أنا أولدُ مِنْ جَدِيد.

وأمَّا اللِّقاءُ الثّاني فكانَ بعدَ خمسَةِ أشهُر.. ويومَ الأحَد في الكنيسَة. لقد ألَحَّ عليَّ، وهذا من غرائبِ المَقدور! أبي مُنير أن آتِيَ لأسمَعَ القدَّاسَ معَه. وطلبَ منّي أن أقودَ السيَّارَةَ لأنَّه كانَ مَوعوكًا من ألَمٍ في أسفَلِ ظَهرِه. وهذا يوحي لي، أحيانًا، أنَّ الانسانَ يُؤَدِّي دَوْرًا على مسرَحِ عُمرِهِ.. واحِدًا وَحيدًا! لا يَسَعُهُ أن يَختارَ سِواه. وما إن دَخلنا تلكَ الكنيسَة الرِّيفيَّةَ الطّابع.. والأشجارُ العاليَة الوارفة تُحيطُها من كلِّ ناحيَة.. كأنَّها أناملُ اللهِ تغطِّيها وتحميها من فَضَاآتِ الحَياةِ الآثمَة.. وقعَ بَصَري على رَشا وأمِّها وأبيها جالسِينَ على أحَدِ المَقاعِدِ الخَلفيَّة.. يا للصّدفة! كانت رَشَا كأنَّها مَلاكٌ في السَّماء. الوَجهُ كانَ خاليًا منَ التبَرُّج، واللِّباسُ متواضعًا. الانسجامُ التامّ بينَ دَقائِق ملامِحِها جَعلَها بغنًى عنِ التَّلويناتِ التي توقعُ الذّائقةَ في الكَمين. وكانَ القدّاسُ كأنّه حلُمٌ مُزعِج بالنِّسبةِ إليّ. خَرَجتُ إلى باحَةِ الكنيسَةِ وانتظرتُها بفارغ الصَّبر. وما إن خرَجَتْ منَ البابِ حتى اقترَبتُ منها وَحَادَثتُها.. غازَلتُها.. أضحَكتُها.. نَظَرْتُ إليها كأنَّها تختَصِرُ نِسَاءَ الكونِ جَميعَهنّ. قرأتُ سُطورَ الفَرَحِ في عَيْنَيها.. وضِحكتِها التي رسَمَتْ على أوتار قلبي نوتاتٍ لم أسمَعْ بمثلِها من ذي قبل. الحُبُّ صانِعُ سمفونيَّاتٍ رائعَة! لاحظَ مُنير، بالتّأكيد، وَعَمِّي رَشيد وزَوْجَتُه انفرادَنا واهتمامَ واحدِنا بالآخر. وهنا بدأ "الصَيَّادُ الأسوَدُ" يَتلصَّصُ علينا لكي يُجهزَ على طيُورِ الحُبِّ التي لم تَبدأ بَعدُ في تَغريداتِها العَذبَة. قلتُ لها بصَرَاحَة، وكلماتي ليسَت غيرَ هوامشَ للنَّصِّ الأصلِيِّ الذي رُحتُ أبوحُ بهِ في نظراتي إليها:

– أنا مُشتاقٌ لفنجانِ قهوَةٍ من يدَيكِ الحُلوَتَين.. لماذا لا تزُورينا يا رَشَا؟

فأجابَتْ في نغمَةِ مُعاتبَةٍ هي الأخرى:

– لماذا لا تزُورُنا أنتَ وتشرَبُ من قهوتِنا الطيِّبَةِ يا صَخر؟!

– سآتي يا رَشَا.. في أوَّل فرصَة إن شَاءَ الله. قلتُ لها.

– تعالَ وتَغَدَّ عندَنا.. اليَوم يومُ أحَد.. وهذِه فرصَة نادرَة!

– دَعيني أسألْ أبي. قلتُ أنا.. وقالت هي:

– وأنا سأحاولُ أن أقنِعَ والدَيَّ بأن نتغدَّى جميعُنا اليومَ معًا، إنّها فرصَة! ورُبَّ صدفةٍ خيرٌ من ألفِ ميعاد.

وهكذا كان.. ونَجحَتْ مَسَاعينا لدَى الأهل، ورُحنا وتناولنا الغداءَ عندَ بيتِ عَمِّي رَشيد. وكانَ لقائي طويلاً مُرْوِيًا معَ رَشَا. شربَ أبي وعَمِّي العَرَق، وأجبَرَتني رَشَا أن أسايرَها بقدَحٍ أيضًا. ورَشيد لديهِ صَوْتٌ جَميل.. فأنشَدَ لنا، ونزولاً عندَ طلَبِ رَشَا أيضًا، عدَدًا من أبياتِ العتابا ذاتِ مَضمونٍ غَزَليٍّ. والحَقيقة أنَّ هذِه الغزليَّاتِ اللّطيفة كانتِ الموسيقى التَّصويريَّة لما يدورُ في ساحةِ حُبِّنا من تطوُّراتٍ دراميَّة. وبَعدَ أن تناولنا الفواكهَ والحَلوى وشَربنا القهوَة، جلسنا لوَحدِنا، أنا ورَشَا، نستمِعُ إلى الموسيقى. كانت تعشَقُ أغاني وردَة ونجاة الصَّغير وراغب علامه، تلكَ التي غنّاها في بداياتِهِ في الثمانينات. ثمَّ تَمَشَّينا قليلاً على الدَّرْبِ القريبَةِ منَ البَيت. وعندَما دارَ التَّساؤلُ بيننا عن الحُبِّ الأوّل.. كانَ التَّجاوبُ أنَّ لا مَرَّة سابقة. وهذا يَعني أنَّنا كنَّا نَعيشُ أمتَعَ لحَظاتِ الحَيَاة.. لأنَّها مَرَّتُنا الأولى.

– ألم تصاحِبْ يا صَخر.. ألم تُحِبَّ في حياتِك؟ سألتني هي أوّلاً.

– لا.. ولكنَّ الذي يرَى عَينَيكِ الحُلوتَين، ولو كان قد أحَبَّ عشرَاتِ الفتَيَات قبلَكِ، سيَشعرُ بأنّه يُغرَمُ للمَرَّةِ الأولى. كانَ هذا جوابي. فضَحِكَت ضِحكةً يَمتزجُ فيها الخَجَلُ بطلبِ المَزيدِ من المُداعباتِ الغزَليَّةِ هذه. قلتُ لها:

– حَفِظتُ هذا البَيْتَ للمُتنبِّي عندما كنَّا في البَكالوريا.

– ما هو؟ سألَتْ.

– وَمَا كنتُ مِمَّنْ يَعشَقُ الحُبَّ قلبُهُ.. ولكنَّ مَنْ يُبصِرْ جُفونَكِ يَعْشَق. ثمَّ سَألتُها:

– وأنتِ.. ألمْ يُعْجبْكِ شابٌّ بَعد؟

– في الماضِي لا. ولكن في الحاضِرِ رُبَّما. هكذا كانَ جَوَابُها، وكانَ علامَةً لي.

ثمَّ تواعَدنا بعدَ ذلكَ، وتلاقينا وخَرَجنا معَ الرِّفقةِ والأصحاب إلى الأنديَةِ والسَّهرَات.. عددًا منَ المَرَّاتِ لا يتجاوزُ عددَ أصابع اليَدَين! أجَل.. كانتْ هذه حلُمًا لن أنساهُ ما حَييت. إلى أنِ اتَّصلَتْ بي هاتفيًّا ذاتَ يوم.. وقالت لي أنَّها لن تأتيَ معي في مَسَاءٍ كنَّا ذاهبَين فيه إلى السِّينما. ثمَّ بعدَ أيَّام التَقينا صدفةً في النّادي، وقالت لي والدَّمعَةُ تخنُقُ كلمَاتِها:

– صَخر.. اللِّقاءُ بَعدَ اليَوم صَعب.. بَل مُستحيل!

كانت كلِماتُها خِنجَرًا في صَدري! بل في عُمري. لمْ نتواعَدْ بَعدَها.. لم نَبتَهِجْ.. لم نَشبَعْ منَ الحُبِّ الذي أرادَ أن يُذيقَنا نَسمَةً من مَلكوتِهِ الفَسيح، وتركَنا جَرحى ظُلمِهِ وَقساوَةِ عبَثِهِ. أقنَعَها أبوها رَشيد بأنِّي لستُ ابنَ أخيهِ، وبأنِّي مَجهولُ الهُويَّة، وهو يَخشى أن تتَطوَّرَ العلاقة بينَنا، ثمّ يتَّضِحُ في المستقبل ما لا يُرضي من جِهَةِ نسَبي. هذا بالاضافةِ إلى سُمعَةِ مُنير سويدان في زَوَاجِهِ الفاشِل وبَيتِهِ المُتداعي. وقد قالَ لي أبي أيضًا بحَزْم:

– رَشيد حُرٌّ بابنَتِه.. وأنا لا أستطيعُ إقناعَه. أنصَحُكَ بأن تنسَى رَشَا.. ليسَ الوقت وقتَ زواج يا صَخر. وعندَما يحينُ الوَقت بناتُ الحَلال كثار.

وهكذا شرَعتُ أحاربُ ذاكِرَتي وَحَنِيني وحِرْماني علَّني أنسَاها.. ولكنِّي ازدَدتُ تعلُّقًا بها. وَيَبدو أنَّها هي كانتْ تذوقُ المُعاناة نفسَها. وإذا التَقَينا بالصّدفةِ في النّادي.. على الدَّرب.. في الشّارع.. في المَطعَم.. نتَصَافحُ ونَتَعَانقُ لثوانٍ.. وَتَبكي هيَ وتقولُ بأنَّها مُتألِّمَة ولا تستَطيعُ أن تَتخَطَّى ألمَها. ثمَّ بدأت مَرحَلةٌ أخرى في هذِه العلاقةِ الحَزينة.. فشَرَعنا نتراسَل.. عبرَ وسيطٍ أو عبرَ البريدِ التَّقليديّ آنذاك. ثمَّ اقتنَعْنا في مَرحلةٍ ما متقدِّمَةٍ بأنَّنا رُوحٌ في جَسَدَين. وجَاءَت إليَّ بفكرَةٍ ذاتَ يوم، وفي رسَالةٍ سلَّمَتني إيَّاها بيَدِها في النَّادي وَمَشَت بسُرْعَة، طرَحَت عليَّ فِكرَةَ "الخَطيفة". ذُعِرْتُ أنا للمُفاجَأة! لمْ يَعِنَّ لي هذا المَوضوع قطّ. الظُّرُوفُ مُستحيلة! إنَّهُ تمَرُّدٌ مَجنون. ولكنَّ ثورَتَها.. إن هي إلاّ صَدى حُبٍّ صادقٍ حَقيقيٍّ لاهِب. أقنَعَتْني بأنَّ الحُبَّ يأتي مَرَّةً واحِدَة.. وهو

خَليقٌ بالمُغامَرَة، وإذا كانَت هذه قِسمتُنا في هذه الدُّنيا.. فلماذا نخسَرُ قسمتَنا؟! وأبقَينا الأمرَ سِرًّا.

– ولكن.. ألمْ تتذكَّرْ في هذِه المَرحلةِ بالذّات.. كلماتِ وفاء الجَدَّة على غِلافِ الإنجيل الذي أعطَتكَ إيَّاه عن غَيث الرَّاسي؟ ألا زلتَ تحتفِظُ بهِ بالمُناسبَة؟

قاطعَ المُحقِّقُ شَكيب مْدَوَّر كلامَ صَخر بسُؤالٍ أيقظَه من سَرديَّاتِ الرِّوايَة. فأجابَ صَخر وهو يبُلُّ ريقَه برَشفةٍ منَ الويسكي أمامَه.. وراحَ يُشعِلُ لفافةً أخرى:

– بلى.. حاولتُ وفشِلت. لم يَقفِزْ غَيث الرَّاسي إلى الواجهَة إلاّ بعدَ عودَتِه من أميركا.

– وماذا كانَ يفعَلُ في أميركا؟ سألَ المُحقِّق.

– غَيث الرَّاسي عِصاميٌّ عَنيد. لقد كوَّنَ إمبراطوريَّتَهُ بنفسِه في أميركا. وإنجيلُ وَفاء أحتفظُ بهِ حتى السَّاعة.

– حسنًا.. تابع. قالَ المُحَقِّق. وتابعَ صَخر:

– لم أخبرْ أبي مُنير بمَشروع "الخَطيفة". كنتُ أعرفُ رَفضَهُ مُسبقًا. لقد تركتُ له رسالةً على طاولةِ المَطبَخ أسنَدتُها على كأسِ زجاج. وهكذا رَتَّبنا خُطَّةَ هُروبِنا أنا ورَشا، ولا ندري إلى أيِّ مُغامرَةٍ نحن ذاهبان. والذي يقودُنا في هذه العاصفة هو قاربُ الحُبِّ وَحدَه.. وهو سلاحُنا ودليلُنا. لقد كانتِ الخُطَّةُ ببساطَة أن نأخذ سيَّارةَ تاكسي اتَّفقنا معَه قبلَ أيَّام، ونكون قد جَهَّزنا أغراضَنا ولباسَنا البَسيط في حَقِيبَتَين.. حَقيبَتي أنا وحَقيبتِها هي. ويَنتظرُني التَّاكسي عندَ المَفرق في السَّاعةِ الرَّابعةِ والنِّصف صَباحًا. أنا لم انَمِ البتَّةَ في تلكَ اللَّيلة! كنتُ مَشدودَ الأعصابِ مِن أمِّ الرّأسِ حتّى الأخمُصَين. نهَضْتُ من فِراشِي ومَشَيتُ على رؤوسِ أصابعي، وارتَدَيتُ ملابسِي وَأدخلتُ المالَ الذي ادَّخَرتُهُ في جَيبي، ووَضَعتُ الحَقيبَةَ خارجَ بابِ المَدخل، وعدتُ إلى المَطبخ وجَلستُ على أعصابي أفكِّر! وكلَّما سمِعتُ صَوتًا ما حَسِبتُهُ أبي صَحا وَجَاءَ إليّ. قرأتُ رسالتي للمَرَّةِ الأخيرَة وتركتُها مكانَها على الطّاولة، وخرَجتُ منَ البَيتِ عندَ الرَّابعَةِ بَعدَ مُنتصفِ اللّيل، وَرُحتُ أمشي نحو المَفرق. كانتِ المنازلُ مُظلمَةً، وبعضُ مَصَابيحِ

البلَديَّةِ مُطفأ، والقمرُ متوارٍ وراءَ الغيوم، وَصَوتُ حشَرَاتِ اللّيل موسيقًى تصويريَّة مُخيفَة.. كانَ اللَّيلُ عَبَاءَتي السَّوداء. وعندما مَرَرْتُ في الزّاروبِ تحتَ نافذةِ بيتِ فايز مَخّول سَمِعتُ أنينًا أنثويًّا! كانَ هذا تأوُّهاتِ زَوجتِهِ في لذَّتِها. فقلتُ لنَفسِي: "ليلتُكَ آتيَةٌ يا رَجُل معَ حَبيبَتِك الوَلوع رَشَا". ووَصلتُ إلى المَفرقِ وَجَلسْتُ على حافَّةِ الطَّريق. بعدَ نصفِ ساعة وصلَ السّائق. رَمَيتُ حَقيبَتي في صُندوقةِ السيَّارَة وصعَدتُ إلى جانبه. وبعدَ ثلثِ ساعةٍ كنّا عندَ الشَّجَرَةِ وراءَ مبنى مدرَسَةِ اليَسوعيِّين الابتدائيَّة، حيث كانت رَشَا وَحقيبتُها تنتظرُنا منذ نصفِ ساعةٍ أيضًا. وَثَبتُ إليها وَضَمَمْتُها إلى صَدري وَعَانَقتُها بحَرَارة. قالتِ المِسكينةُ لي وهي مُغمضَة العَيْنَين: "شُدَّ أكثَر بَعد يا حَبيبي". وكانتِ المَرَّةُ الأولى التي عانَقتُها فيها بإحساسٍ لم اذُقْ نَظيرَ عُذوبَتِهِ من قبل. وَضَعتُ حَقيبَتَها في الصُّندوقةِ وجلسنا في المَقعَدِ الخَلفِيّ، وانطلقتِ السَيَّارةُ بنا إلى مَدينةِ دوما[1] الشِّماليَّة ذاتِ الأبنيَةِ النَّموذَجيَّةِ الحَمراء، وكنَّا في بدايةِ فَصلِ الرَّبيع تقريبًا. لم نَتَكلَّمْ في السَيَّارَة، كانتْ مُرْتمية على كتِفِي، وكنتُ أحيطُها بذراعي وأقبِّلُ شَعْرَها. سألَ السّائق:

– هكذا لوَحدِكما..! أليسَ هناكَ مَن يُساعدُكما ويُسَهِّلُ لكما أمورَكُما؟

أجابَته رَشَا بصَوتٍ أجَشّ:

– ليسَ لنا غير الله وَحُبِّنا الصَّادق.

– وَفَّقكُما الله يا ابنَتِي.. أتمَنَّى لكما كلَّ الخَير، وَمبروك سلَفًا.

وَصلَنا إلى الفندق. أعطَيتُ السّائق نقودَهُ وَدَخلنا وأخذنا مفتاحَ غُرفتِنا بَعدَ لأيٍ.. وَصَعَدنا. وخارطةُ الطّريق أن نبقى ليلةً واحِدَة فقط في الفندُق، وفي صباحِ اليوم التالي نذهب إلى صديقٍ لي في تنُّورين، ونَبقَى يومين ثلاثة عندَه، ونتَّصِلُ بذَوينا من خلالِهِ ونُعلِنُ "الخَطيفة". بَقينا في غُرْفتِنا ريثما جاءَ وقتُ الفطور. نزلنا تناولنا الفطورَ ثمَّ عدنا إلى غرفتِنا. كنّا أنا وَرَشا في حَالةِ توتُّرٍ شَديد.. لأنَّ رَدَّةَ الفِعل على إعلانِ الخَطيفة سوف تُحدِّدُ قرارَاتِنا والخُطواتِ التاليَة. مَرَّ الوقتُ والدَّقيقةُ بيَوْم! وعندَ الظُّهْر نزلنا أيضًا وتناولنا الغَدَاءَ ثمَّ صعَدنا واستلقَينا. وَضَعَتْ رَشَا رأسَها على صَدري وَسَألتني:

[1] مدينة في ريف قضاء البترون شماليّ لبنان.

– هل سنَنجَحُ يا صَخر؟

– نَحنُ نفعلُ ما يُمليهِ علينا حُبُّنا، وهذا كافٍ.

– أتُرى يَنتصِرُ الحُبُّ دائمًا؟ ألحَّتْ في سُؤَالِها.

– لن نفشَلَ يا حَبيبَتي. سَنقِفُ في وَجهِهِم رَيثما يَستَسلمون. أجَبْتُها، فقالت لي:

– غريبٌ أمرُ هذا الحُبّ.. مُغامرٌ شُجاع.. يتَحدَّى المُستحيل.. وهذا ما يَجعلُه رائعًا.

كنّا نتَجَاذَبُ أطرافَ الحَدِيث.. قلِقَيْن. وَحَالةُ التَوتُّر ألغَتْ ديناميَّةَ الانفِعالِ الجنسِيّ. وَغرَقنا في غفوَةٍ طويلة. ثمَّ صَحَونا بَعدَ سَاعَتَين.. وأخَذنا دُوْشًا. ثمَّ نزلتُ أنا لأجري اتِّصالي بصديقي في تتُّورين[٢]، واتَّفَقتُ معه أن نأتي لعندِه في اليَومِ التّالي قبلَ الظُّهر. منزلُه فسيحٌ عندَ أطرافِ البَلدَة، ولا يأتي إليهِ إلاَّ في عُطلةِ نِهَايةِ الأسبوع هو ووَالدَتُه. وهكذا في اليَوم التَّالي عندَ السَّاعةِ التَّاسِعَة حَضرَتْ سَيَّارَةُ التّاكسي، فدَفعتُ أنا مصاريفَ الفندق وانطلقنا إلى تتُّورين. ولم نكَدْ نصِلُ إلى منتصفِ الطّريق بين دوما وتتُّورين، وسطَ البَريَّةِ المُنعَزلةِ، حتى اعتَرَضَتنا سَيَّارَتان غريبَتان انبَثَقَتا منَ العَدَم! أجبَرَتا سائقَنا على التَوَقُّفِ بجانبِ الطّريق. نزلَ منها أربَعَةُ رجال، ونادَى واحدٌ منهم:

– صَخر وَرَشَا تفَضَّلا مَعنا بكلِّ هدوء.. وفي طريقِ العَودةِ تعرفان كلَّ شَيْء.. ولا تُجبراني على استخدامِ طريقةٍ غير لطيفة.

خافَتْ رَشَا وشرَعَتْ تبكي. فضَمَمتُها إلى صَدري، ونزلنا بهُدوءٍ. سألتُه:

– ولكن مَنْ أنتم؟

– ستَحصل على التَّوضيحاتِ كلِّها في الطّريق. اصعدا في هذه السَيَّارَة من فضلِكما.

وَضَعوا الحَقيبَتَين في سَيَّارةٍ ونحن رَكبنا في السيَّارةِ الأخرى. وأعطوا التَّاكسي أجرتَه وتركَوه لسَبيلِه. وبَعدَ دَقائقَ مِن انطلاقِنا قالَ لي قائِدُهم:

---

[٢] مدينة في جرود قضاء البترون.

– ستكونان في ضِيافَةِ غَسَّان الجُردي بعدَ قليل. أنتما مَدعُوَّان لتناولِ الغَدَاء في شُقَّتِه الخاصَّة في البَرْبارَة[٣].

وهكذا كان. وحتمًا لم يَكن هذا الكَرَمُ في دَارتِهِ الفسيحَةِ في المنصوريَّة.. بل في شقَّةٍ عاديَّةٍ في بلدةِ البرْبَارَةِ السَّاحليَّة. إنّها "القبْوُ الأسوَد" للتَّخطيطِ والمُتعَة! وصلنا وكانَ حَضْرَتُه في انتِظارِنا في الرَّدهَة. أمَرَ رجالَه بالانصراف، وقالَ لرَشا:

– رَشَا أنا مُكلّف بإعادتِكِ إلى أهلِك. وهذا الزَّوَاج لنْ يَتمّ. ستَتَناوَلين الغَدَاء مَعَنا اليَوم، ثمَّ يوصلُكِ شابّ إلى بَيتِكم. وأمَّا صَخر فأنا بحَاجةٍ إليه في مَوضوع عَمَل.

لقدِ اتَّصلَ أبي بغَسَّان الجُردي وطلبَ منه المُسَاعدَة. وَغَسَّان أوْكلَ المَهَمَّة لفريقِهِ السِرِّيّ الذي يُطلقُ عليه اسمَ (أشباح النَّار). وهؤلاء مُحترفونَ يَعرفونَ كلَّ شَيْء. وَمُنير سويدان لا يُريدُ مَشَاكلَ معَ أقربائِهِ أكثر مِمَّا هو عليه الحال. أدْرَكتُ كم أنا ضعيف وكم هو غسّان الجُردي قويّ! إنّهُ ساحِرٌ يَحصلُ على ما يُريد بالكَيفيَّة التي يُريد. قالَ لي أنَّ الحَيَاةَ لا تتقَدَّمُ بسَلاحفِ العَاطفَة.. وإنَّما بصُقور القُوَّة. والعاطفة خاسِرَةٌ دَومًا، وأمّا القوَّة فهي رابحَة. القُوَّة وَحدَها هي رَكيزَةُ الحَيَاة. كنتُ أكرَهُ غسّان الجُردي.. ولكنَّهُ راحَ يُعاملُني، منذُ تلكَ الخَيبَةِ المُرَّةِ الجارحَة، كابْنٍ له. وقال لي أيضًا:

– لو قبِلَ مَعِي أبوكَ مُنير بمَا عرَضتُهُ عليهِ من مَشَاريع.. لكانَ الآنَ من مشاهيرِ الأقويَاء. فلا تُضَيِّعْ أنتَ ما خَسِرَه أبوك.

لقد طلبَ منّي غسَّان الجُردي الانضمامَ إليه، وإلى فريقِهِ السِّرِّي (أشباح النَّار). ولأنّه وَجَدَ فيَّ الشَجَاعَة والذَّكاء، وهو يعرفُ تاريخ علاقتي بمُنير سويدان، أرسَلني تحتَ ضَغطِ التَّرْغيبِ والتَّرهيب، لأعمَلَ (دَورةً في التَحَريَّة)، ثمَّ أجريَتُ بعدَ ذلكَ تدريبًا خاصًّا شاقًّا وَسِرِّيًّا على أيدي فريقِه. وهذا كانَ كافيًا "لفَرْمَتَةِ قلبي وذاكرَتي" منَ الحَنينِ إلى الفتاةِ الطيِّبَةِ القلب رَشَا. وفي تلكَ المَرحلة.. طَويتُ صَفحَةَ العَاطفَةِ من حَيَاتي.. صَفحَةَ الضَّعف.. صفحَةَ العَجْزِ والقُصور.. وأصبَحْتُ شَبَحًا في مَجموعةِ (أشباح النّار)

[٣] بلدة ساحليَّة في قضاء جبيل.

السِّريَّة التابعة للسِّياسيِّ الدَّاهيَة غَسَّان الجُردي. وهكذا وُلدَتْ شَخصيَّتي الثّالثة باسمِها السِّرّي الجَديد. ولم اسألْ عن رَشَا المِسكينة.. فقط لأنتقِمَ من ذُلِّي وضَعفِي.. ولأصبِحَ ذا قوَّةٍ ساحرَةٍ نافذَةٍ كالتي لغَسَّان الجُردي. ولأنّي أصبَحْتُ آلةً بَشَريّةً ذَكيّةً ذات حاسَّةِ شَمٍّ فائقة.. عَزَمتُ على العودةِ إلى البَحْث المُستَمِرّ عن والدِي الحَقيقي غَيث الرَّاسي.

ثمَّ غمَسَ صَخر سويدان سيكارتَه في المِنفضَة، وكرَعَ ما بقيَ في كأسِهِ منَ الويسكي.

*****

الورقة الرّابعة عشرة

سَألوني:
لماذا لوحَاتُك غيرُ مَفهُومَة؟
أجَبتُهُم:
العالمُ لا مَعنًى له..
وأنا في رُسومي أصوِّرُ العالم؟!

بابلو بيكاسّو

تحدَّثَ جان جاك روسّو عن كيفيَّة كتابتِهِ لرسائل الحُبّ، فقال:
أبدأ في الكتابَة.. ولا أعرفُ ماذا سأكتبُ..
وأنتهي من الكتابَة.. ولا أدري ماذا كتبْت.

ديل كارنيجي

النَّجم رقم واحِد في مأساةِ ١٩ تشرين الأوَّل ٢٠١٥ الاقتصادِيُّ الكبير غَيث الرَّاسي.

ودائمًا..على هامش كلِّ حِكايةٍ.. حكاياتٌ صَغيرَة عابرَة.. ترفدُ الرِّواية الكبيرَة حينًا ثمَّ تنفصلُ عنها بهدوء. وأبطالُ هذه الحكايات الهامشيَّة هامشيّون أيضًا! بعضٌ منهم يَتلاشى في بَحر الرِّوايَةِ الكبيرَة كالأنهار تمامًا، والبعضُ الآخرُ ينحرفُ إلى مكانٍ ما في البَرِّ ليَنتهيَ إلى بُحيرَةٍ أو نَهرٍ آخرَ أكبر منه. الأبطالُ الرَّئيسيُّون في روايَةِ غيث الرَّاسي رافقوه إلى النِّهاية، والهامشيُّون تناثروا كأوراق الخريفِ وتلاشَوا تحتَ مَمْحاةِ

عبَثِ الحَيَاةِ المُحيِّر. وفي لَيلِ حَيَاةِ غيث نَجْماتٌ خَمس: روجين آتشي الفاتنة التُركيَّة وابنُها منه، وإيميه جَبُّور وابنُها منه كذلك، ثمَّ تلكَ الرِّياضيَّة الماجنة المُثيرَة سَابين سْماحَه، التي حاولَت أن توقعَه في غرامِها، بالتَّخطيط معَ ابنِ الوزير فِرَاس، وانتَهَتْ إلى الخَيْبَة. سابين هذه تزَوَّجَت من رياضيٍّ مثلِها في نادي حالات. وأمَّا فِرَاس ذو التَّاريخ الحافل بالتَّحَرُّشاتِ الفاشلة بالفتيَات، ومَشاكلُه كثيرَة معَهُنّ ومعَ أخيهِ أيضًا الذي يكبُرُه بخمسِ سنوات.. بَهيج.. فكانَ الصِّدَامُ بينَهُما! وتَركَ هذا الأخيرُ البلَدَ إثرَ حادثةٍ غامضَةٍ ورَحَلَ إلى إنكلترا ليُتابعَ دراسَة العلوم السِّياسيَّة والاقتصاديَّة. وهو نفسُه ستجمعُهُ الصّدفة في باريس بإيميه جَبُّور ذاتَ يَوم، ليُخبرَها بأنّه هو من أنقذَها من يدِ أخيه فِرَاس ومَشروعِهِ الفاشِل للايقاعِ بها.. والايقاعِ بَينَها وبينَ غَيث.

طفل روجين آتشي خَطَفَتْهُ العانِسَتانِ الفلِسطينيَّتان، بُعيدَ الحادثةِ المشؤُومَة في منزلهما في الشيَّاح.. ثمَّ انشَقَّتِ الأرضُ وابتلعَتهُما معَ الطفل. الطِّفلُ عارضٌ وَرُوجين عُنصرٌ أساسِيٌّ في التَّتبيلةِ الختاميَّة للحِكاية. وأمَّا إيميه جَبُّور وابنُها فلهُما فصولٌ طويلة صاخبَة في هذه الدّراما الشَّبيهَةِ "بآلةِ الزَّمَن" التي تُسافرُ بأبطالِها عبرَ مراحلَ زَمَنيَّةٍ متنقِّلة لتدفَعَهم أخيرًا إلى العَدَم. لقد رَمَى غَيث إيميه رَميةً مُريعَة! وزَوَّدَها بالجَنيْن، أو القُنبلة المَوقوتَة التي ستَنفجرُ في ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥، أو "الإرث المُحَرَّم" معَ توقيعٍ ساخرٍ بحُروفٍ حَمراءَ يَسمَحُ بحُريَّةِ التَّصرُّف بهذا الإرث بالكامل. وإيميه بدَورِها ستَتصرَّفُ بحُريَّةٍ مُطلقة بهذا التَّفويض.

وهناك.. بَعيدًا جدًّا.. في أميركا.. في ولاية كارولاينا، سيَبدأ غَيث الرَّاسي حياتَه الجَديدَة معَ زَوْجتِهِ آنجيلا كينيث مالكةِ شركةٍ عقاريَّة كبيرة. وآنجيلا رافدٌ ثانويٌّ آخرُ للحِكايَة. شَعَرَ غيث كأنَّه وُلِدَ من جَديد! لقد فتَحَتْ له الحَياةُ أبوابَ مَجدِها على المَصَاريع. آنجيلا كانتِ الصَّفقَةَ الحُلُم. عَيَّنَتْ آنجيلا غَيث رئيسًا لمجلس إدارةِ الشَّركة، وأظهرَ غَيث بدَورِه، وفي مدَّةٍ وَجيزَة، كفاآتٍ إداريَّةً عالية ومهاراتٍ تجاريَّة تسويقيَّة. ولم تكَدْ تمُرُّ سنَة على زَواجِهما حتى راحَ يُخرجُ أرانبَ المشاريع من قبَّعَةِ اللُّعبَةِ الاقتِصَاديَّة السِّحريَّة، مُرتكزًا على مبادئَ سَهلةٍ بَسطةٍ للغايَة: الشِّرَاءُ على الرَّخيص

والبَيعُ على الغالي، استثمارُ الرِّهانات في البورصَة، قروضٌ حَكيمَة من المَصَارف، شِرَاءُ أسهُم في شَركاتٍ كبيرةٍ ناجحَة، والدُّخولُ كمُسَاهمٍ رَئيسيٍّ في شَركاتٍ ناميةٍ واعِدَة. هكذا بدأ غَيث ببَسَاطة.. هي الفِطرَةُ فقط وَالشَّجَاعَة. وأمّا العلاقة معَ آنجيلا التي تكبرُه بسَنَوات، فكانتِ انطلاقتُها ممتازَة! كانطلاقةِ المَكُّوكِ الفضائِيِّ وهو بعدُ داخلَ الغِلافِ الجَوِّي، ولكن.. معَ مرور الوقت أصبَحَت كأنَّها خارجَ الزَّمَن.. خارجَ الغلافِ الأرضِيّ. لقد اتَّفقا منذ البدايَةِ على عدَمِ الانجاب، هي تُريدُ أن تشبَعَ من شَبَابِها. وآنجيلا ليسَتْ من النَّوع الطَّامِحِ ماديًّا معَ نَجَاح شَركتِها اللاّفِت. بيدَ أنَّ غَيث صاروخُ طمُوْحات!! وارتواءُ آنجيلا من غَيث جنسيًّا جَعلَها مُدمنةً عليه.. وهذا حَتمًا سوفَ يدفعُ بالغَيرَةِ في قلبِها نَحوَ مَزيدٍ مِنَ الاتِّقاد. قدَّمَت له الكثيرَ منَ التَّنازلات ثمنًا لهذا الشَّبَع، فيما شرَعَ هو يَبتزُّها للحُصول على الصَّلاحيَّاتِ منها والتَّفويضات، فتركَت له هوامشَ للَّعِبِ بذَيلِه، كمَا ظنَّتْ، بَعيدًا عنِ الخُطوطِ الحُمر. ولكنَّ الطَّبْخةَ التي راحَ يَطبُخُها غَيث في مَطبَخِ استِقلاليَّتِهِ الاقتصاديَّة لم تُدركْها عقليَّةُ الأنوثة مَهما بلغَتْ من العَبقريَّة. هذا، وفي أقلّ من سَنَتَين، بدأتْ طلائعُ الفتُور الجنسِيِّ تمدُّ العُنق.. بل عُزوفُ غَيث عنها شَيئًا فشَيئًا حتى القَطيعَة. بدا لها أنَّه لم يَعُدْ يَرغبُها.. وهي الغارقة في بَحرِ شَهَوَاتِ ثلاثينيَّاتِها اللاَّهب. كأنّه، كمَا رَأتْ، عدَمُ تناغمٍ جنسِيٍّ يتفاقمُ بَينَهما، هي السَّاخنة وهو البارِدُ تدريجيًّا. خامَرَتها الشُّكوكُ بعَشيقةٍ ما.. فعزَمَتْ على نثرِ الأعيُنِ والأنوفِ وراءَه، ولكنَّها تعرفُ تمامًا أنَّ هذا لا يُجدي، وَما فاتَ مات وما هو آتٍ آت. في البدايةِ كانتْ لا تَعبَأ بخِداعِه.. فهو ليسَ شَريكًا في ثرْوَتِها ولا مُساهمًا ولا داعمًا رافدًا.. والخِسَارَة لو وَقعَتْ فهي عليهما كلَيهما.. وما كتبَتْهُ باسمِهِ ليسَ بالشَّيْءِ الكبير. ولكنَّ غَيث أحسَنَ إدارةَ اللُّعبَة جيِّدًا. لقد استفادَ من شركةِ آنجيلا بالخِبْرَة ومعرفةٍ بالسُّوق والعلاقاتِ الدِّيناميكيَّة معَ العُمَلاء ورجالِ الأعمال والمُتعَهِّدين. وبواسطةِ قرُوضِهِ الشُّجَاعَةِ والحَكيمَة استطاعَ بسرعةِ البَرق أن يشتريَ عقاراتٍ في الضَّواحي الرِّيفيَّةِ للمَدينة، فبنى فيها البُيوتَ النَّموذجيَّة التي تناسبُ الموَظّفين من الدَّرَجَةِ الوسَط، من ثلاث طبقاتٍ العيِّنَة: السُّفليّ والأرضِيّ والأوّل، وبجانبها حديقة وَمَركن لسيَّارتَين. وهكذا شكَّلَ المَشروعان الأوَّلان من هذه المَنازل نواةَ شَركتِهِ العقاريَّةِ الهندسيَّةِ الجَديدة في كارولاينا. زَوجتُه آنجيلا هي الشَّريكةُ الأولى في هذا المَشروع، والثاني مُتعَهِّد أميركيّ

كبير، والثالث مهندسٌ معماريٌّ من أصل لبنانيّ. ثمَّ راحَ غَيث يتكوَّنُ إقتصاديًّا بمَنهجيَّةٍ نظيفةٍ أنيقة، ومن غير أن يُرخِيَ بثقلِهِ على بزنس آنجيلا، وجَعلَ مكتبَهُ لشَركتِهِ الجَديدَة في الطّبَقةِ العاشرَة في مَبنًى قريبٍ من شَركتِها، وكانَ هذا مُريحًا لها. وما لم يكنْ مُريحًا لها البتّة هو ابتعادُه عنها في الفِرَاش، وهي الشابَّة والقادرة على إشباعِهِ وإشباع عَشرَةٍ مثله. ولكنَّها كانت تجهلُ أنَّ المُشكلة مَدفونة في مَخبَأٍ آخر.. إنَّها هناك.. تتفاعلُ بعُمقٍ.. في مَجْموعةٍ من تراكُماتٍ رافَقتْهُ منذ دَخلتِهِ الوَحيدَةِ إلى السِّجن، في خِدعَةِ بَيْعِ الأرضِ السَّائبَةِ في تلكَ البلدَةِ السُّفوحيَّةِ الكِسِرْوانيَّة.

وذاتَ يوم.. جاءَت آنجيلا إلى مَكتب غَيث في شَركتِه. وكانَ مَكتبُهُ ذا ديكوراتٍ بسيطةٍ أنيقة، والواجهةُ الزُجاجيَّة العريضَة مُشرفةً على قسمٍ جَميلٍ من أحياءِ المَدينة. ورَأتْ مِنظارًا تيليسكوبيًّا قربَ الواجهَة مُرتكزًا على قاعِدَتِهِ، كأنَّهُ حشَرَة خُرافيَّة عِملاقة، وعدَسَتُهُ موجَّهَة نحوَ السَّمَاء. سألته في عفَويَّتِها:

– ما هذا؟ مُشيرةً بيَدِها إلى التّيليسكوب.

– هذا تيليسكوب.. أحِبُّ أن أراقبَ النُّجومَ في اللَّيل. أجابَها وهو يُشعلُ سيكارَة، وَدَنا ليَجلسَ قبالتَها.

– جَديدَة هذِهِ عليَّ.. لم أعهَدْكَ هاويَ تيليسكوب! قالت، وَقد قامَتْ واقترَبَتْ تحاولُ أن تنظرَ في عدَسَةِ المِنظار.

– هوايَتي منذ كنتُ مُراهقًا. كانَ لدَيَّ تيليسكوب قديم أعطاني إيَّاه خالي. وكنت أشاهدُ اللَّيلَ من خلالِه. كانَ هذا يُريحُني نَفسيًّا. لا تقدري يا آنجيلا أن تتَخيَّلي أيَّ نشوَةٍ أحِسُّ بها في مُراقبتِي النُّجُوم! تمَامًا كما ترتاحُ نفسيَّةُ المُصلِّي وهو يرفَعُ عَينَيْه وقلبَه إلى السَّمَاء.

كانَ هذا الكلامُ فيلمًا مُتقَنَ السِّيناريو مِن مُخيِّلةِ غَيث. ولكنَّ هذا المَكرَ المَفضوحَ لم يَنطلِ على آنجيلا قطّ. ثمَّ خرَجَت من مَكتبِهِ، فالتقَتْ في الرَّدهةِ بامرَأةٍ سَوداءَ تدخلُ إلى الحَمَّامات. فدَخلَتْ وراءَها خلسَةً، وسألتها هَمْسًا:

– أنتِ عاملةُ التَّنظيفات في هذا المَكان؟

– بلى يا سيِّدَتي. أجابتِ الامرَأةُ السَّوْداء.

– أنا زوجة السيِّد غَيث. أريدُ خدمة بسيطَة منك شرطَ أن يبقى الموضوع سرًّا بيننا. قالتْ هذه الكلمات ارتجاليًّا من غير تَخطيط، وَأخرَجَتْ من جزْدانِها بضعَ مئاتٍ من الدُّولارات ودَسَّتها في يَدِ الخادمَة، وقالت:

– وهذِه إكراميَّتُكِ.

– شكرًا لكِ يا سيِّدَتي. قالتها بارتباك وهي تنظرُ إلى المالِ في راحَتِها، وشَعرَتْ بأنَّ القضيَّة تتعلَّقُ بسيِّدِها. ثمَّ أضافت:

– أنا أعملُ هنا يا سيِّدَتي.. ولا أريد أن يَغضبَ منّي السيِّد غَيث.

– لا تخافي.. أنا وَرَاءَك.. أوكاي؟!

– أوكاي.. أوكاي.. قالتْها الخادِمَةُ بارتباكٍ أيضًا.

– أريدُكِ أن تراقبي مكتبَ غَيث.. أقصدُ زائِرَاتِه منَ النِّسَاء.. وخصوصًا حكاية التِّيليسكوب هذا! وإكراميَّتُكِ مَحفوظَة سلفًا غير هذه.. ومُضاعَفَة إذا أحسَنتِ في الأدَاء.

وأذعنَتِ الخادمة السَّوداء، لأنَّ الآمرَةَ هي زَوجَةُ السيِّدِ ولِيِّ نِعمَتِها، وقد دَفعَتْ لها مُسبَقًا. وفي حال انكشَفَ أمرُها فالسيِّدَة آنجيلا ضَمانتُها. ثمَّ همَسَتِ الخادمةُ لآنجيلا:

– أشعرُ يا سيِّدَتي أنَّ زَوجَكِ يَخونُكِ.. ولكن دَعيني آتي إليكِ بشَيْءٍ واضِح.

ولمْ تكنِ الخادمةُ السَّوداءُ عابئَةً بغير عَمَلِها.. فإذا بها من خلالِ مُراقباتِها عن كثب، تكتشفُ هوامشَ في حَيَاةِ غَيث.. لم تكن لتُلاحظَها قبلَ مَهَمَّتِها الجَديدَة. كانت تأتي ثلاثَ مرَّاتٍ في الأسبوع حتى الرَّابعة بعدَ الظّهر، ومرَّةً على الأقلّ في المَسَاء نزُولاً عندَ طلبِ غَيث، حيث يَحتاجُها لخدمَةِ زُوَّاره في مكتبه أو غرفةِ الاجتماعات. وذاتَ مَسَاء.. وحوالي السَّاعةِ الثامنة.. كانَ غَيث لوَحدِه في مَكتبِه. وَحضرَت امرأةٌ حَسناء ودَخلت إليه وأقفلَ البابَ وراءَهما. وكانتِ الخادمة في حالةِ جهوزيَّةٍ كاملةٍ لمراقبَةِ ما يحدُث.

وبسُهولةٍ علِمَتْ أنَّ مباراةً جنسيَّةً من العِيَار الثَّقيل كانتْ دائِرَةً في المَكتب. وبعدَ ثلثي السَّاعة.. أطلَّ غَيث منَ الباب ليتأكَّد أنَّ لا أحَدَ في الرَّدْهةِ والخادمة منهمكة في عَمَلِها، فخرَجَتِ الحَسناءُ وعلى وَجهِها كَدماتٌ ونزيفٌ طفيف فوق صُدغِها والقميصُ مُمَزَّق. والخادمةُ وراءَ البابِ تلتقِطُ المشهَدَ بعدَسَةِ عينٍ خبيثةٍ، لتُوثِّقَهُ في ذاكرَتِها هديَّةً لسيِّدتِها آنجيلا. كانتِ الحَسناءُ في حالةٍ مُزريَة. ومَرَّ أسبوعٌ بعدَها. وفي مَسَاءٍ آخرَ أيضًا.. كانَ غَيث في المَكتبِ ينظرُ في منظارِهِ التِّيليسكوبيّ نحوَ نوافذِ المَبنى المُقابل.. وكانَ البابُ مَفتوحًا. فدَخلَتِ الخادمة متظاهرةً بأنَّها تدخلُ إلى الحَمَّام للتَّنظيف، ورَأته يَنظرُ في تيليسكوبهِ باهتمامٍ وتوتُّر غريب، وَخرَجَت من المَكتب. ثمَّ فجأةً! شعرَتْ أنَّ غَيث خرَجَ من مكتبِهِ في حالةِ اهتياجٍ ناسيًا بابَ مَكتبِه مفتوحًا، وهو يقول للخادمة: "سوفَ أعودُ بعد نصف ساعة". وكانت فرصَة ثمينة للخادمة فدَخلَتْ إلى مَكتبِهِ تلقي نظرةً.. وبالتَّحديد في عَيْنِ التِّيليسكوب الذي كان موَجَّهًا نحوَ نَوَافذِ البنايَةِ المُجاورة.. وهالَها ما رَأت! إنَّها الحَسناءُ نفسُها التي جاءَت إلى غَيث منذ أسبوع وخرَجَتْ في حالةٍ مزرية! وكانتِ الحَسناءُ واقفةً في النَّافذة عاريةً تمامًا تنظرُ نحوَ عَينِ التِّيليسكوب مباشرَةً، كأنَّها تعرف أنَّ هناكَ وراءَ الزُّجاجِ في البنايةِ المُقابلةِ في الطَّبَقةِ العاشرة عَينٌ آدميَّة تَنظرُ إليها. ارتَعدَتِ الخادمَة وتراَجَعت إلى الوَرَاء. خرَجَتْ منَ المَكتب.. ثمَّ عادَتْ لتنظرَ من جَديد.. فرأتِ الحَسناءَ هذه المَرَّة في غرفتِها تذهبُ وتجيءُ.. وفجأةً.. دخلَ غَيث على المَشهَد! ورَاحا يتطارحان الغَرَام في ساديَّةٍ مُخيفة، ورَأتْ غَيث يَضربُها بحِزامِ بنطالهِ ويَعقدُهُ حَولَ عُنُقِها، وهي مُستسلمةٌ له استِسلامًا كاملاً. أدركَتِ الخادمة ما يَجري. وبَعدَ يَومَين كانت قد زَفَّتِ الخَبَرَ المأساويَّ إلى سيِّدَتِها آنجيلا، بعدَ أن قبَضَت ثمَنَ صَيدِها الثَّمين هذا، فقالتْ لها:

– زَوْجُكِ يا سيِّدَتي مُتلصِّصٌ مُحترف.. وساديٌّ مُرعب.

وعندما أرادت آنجيلا مواجَهَة هذه الحَسناء المازوكيَّة في شقَّتِها المواجِهَة لمَكتب غَيث، وقد أيقنَتْ سِرَّ فتُورِهِ من نَحْوِها، بل عَجزَهُ عن الجنسِ الطَّبيعِيِّ السَّويّ أوَّلاً.. ومازوكيَّةَ هذه المرأةِ التي كانت عاشقةً مزمنةً لسَاديَّةِ غَيث المتوَحِّشَة ثانيًا. وغضِبَ غيث عندما علِمَ بلقائِهما، فأعلنَ بنبرَةٍ حازمة:

– زَوَاجُنا انتَهَى يا آنجيلا. وأنتِ مجرَّد مُساهِمَة بينَ شُرَكائي. ومنذ الآن لكِ مُطلق الحُريَّة في أن تبقَي مَعي أو أن تَنفَصِلي. ليسَ لكِ في ذِمَّتي شَيْء.

وأذعَنَتْ آنجيلا للحَقيقةِ المُرَّة.. وانسَحَبَتْ من شَركتِهِ وانفَصَلا غَيرَ آسفةٍ عليه. وتركَته لمَشاريعِهِ وتألُّقِهِ في دُنيا البزنس، وشَركةٍ تلِدُ سواها تحتَ يدَيهِ السَّاحرتَين، وتلصُّصاتِهِ السَّاديَّةِ التي أدمَنَها حتى الجنون.

*****

وأمَّا النَّجم رقم اثنان في واقعَةِ ١٩ تشرين الأوَّل ٢٠١٥ فهي المُهندسَة الزُّخرُفيَّة والحَدَائقيَّة البارعة، ومالكة شركة J.DECO VIEW للتَّصميم الدَّاخلي، إيميه جَبُّور.

لقد بدأ الفَصلُ الأوّل من مأساةِ إيميه يومَ لقائِها بصاحبِ الأحلامِ الجَامحَة غَيث الرَّاسي في حفلة Party في منزلِها في عِزِّ المُراهَقة. والفَصلُ الثّاني عندما هجَرَها مَعَ الثَريَّةِ الأميركيَّة آنجيلا كينيث غارسًا في أحشائِها حُبًّا كاذبًا، معَ تذييلٍ فصيحِ العبارَة: "غيث مَرَّ من هنا". ولكنَّ الفصلَ الثالث والأخير.. سيُتوِّجُ خاتمَتَه الدراميَّةَ الحَزينةَ يومُ ١٩ تشرين الأوّل. لقد اختَفى غَيث كالسِّحر! تلاشى كحُلمِ يَقظةٍ جَميل. بيدَ انَّ الجَنين الذي كانَ جزءًا من هذا الحُلم، هو الآنَ في طريقِهِ ليُصبِحَ واقعًا ملموسًا! إنَّها فضيحَة.. بل كارثة! كادَتِ الصَّدمةُ أن توديَ بحَيَاةِ إيميه. وَأبقاها الانهيارُ العَصَبيُّ أيَّامًا في المُستشفى، ثمَّ خرَجَت مقتنعةً أنّه لا بدَّ لها من تنظيفِ جسَدِها من بقايا غَيث الفاسدَة في بطنِها. ولكنَّ والدَتها رَفضَت قتلَ الجَنين. ولا أحدَ يدري بالضَّبط لماذا تعلَّقت نفسُ وَفَاء والدةِ إيميه بهذا الولَد، مع كونِه خارجًا على القانون، وداخلاً إلى عالمِنا الكئيب نتيجَةَ لعبَةٍ كئيبَةٍ هي الأخرى. لماذا أبقَتْ وَفَاء على الصَّبيّ؟ ما هيَ رهاناتُها؟ هل كانتْ تتوقَّعُ عودَةَ غَيث عن غيِّهِ وضَلالِه؟ خصوصًا أنَّ اختفاءَه غامضٌ أخرس. هل كانت تؤمنُ بالقدَر وتحَوُّلاتِهِ الغريبَةِ المُدهشَة؟ هل كانت وَفَاء غيرَ مُقتنعَةٍ بقتل الجَنِيْن لاعتباراتٍ أخلاقيَّةٍ أو دينيَّة؟ هل كانَ لدى وَفَاء مشروعٌ مُستقبليّ ما؟ ولكنَّ لعبَةَ وَفَاء هي الأخرى ستكون، بالتَّأكيد، لِبْنةً ضَروريَّةً هامَّة في موقِعِها في جِدَارِ المأسَاة. إيميه

لم تكن تعرفُ ما يجولُ في دماغِ والدَتِها بالضبَّط. ألَمُها من تجربةِ غَيث كانَ الثِقلَ الذي جَعلَها تذعنُ لمشورَةِ والدَتِها الحازمَة:

– ستذهبين لعندِ خالتِكِ في باريس.. وتلِدينَ هناك.. وساعةَ أقولُ لكِ تأتينَ وتُدخِلينَ الطِّفلَ إلى مَيتَمِ راهباتِ العازاريَّة في برمَّانا.

وهكذا كان.

من حيث الشَّكل.. كانت إيميه مُطيعةً لوالدَتِها في هذه القَضيَّة. وفي طريقِ رحلتِها إلى مَدينةِ الفنِّ والابداع كانت أرجوحَةً من حبالِ أفكارٍ شتَّى. لقد رَمَتْ جروحَها ونزيفَها.. ودَفنَتْ تاريخَها في أرضِ الوَطَن، وأرادَت أن تَنتَفِضَ كالعَنقاء في ولادَةٍ ثانية في وَطَنٍ ثانٍ.. باريس. هكذا الجُروحُ النَّفسيَّة العظيمَة.. في المَرحلةِ الأولى يبدو الوضع قابلاً للتَّعافي السَّريع. ومعَ الزَّمَن، في أحيانٍ كثيرَة، الأمرُ مَعكوس! المرحلة الأولى هي السَّاخنة.. وهنا لا يشعُرُ المَجروح بكثيرِ ألَم. وعندَما تبرُدُ الجِراحُ السَّاخنة تنتَفِضُ الآلامُ كثائرٍ مارد. في طريقِها إلى باريس، ظنَّتْ إيميه، أنَّ بمقدورِها النِّسيان.. وهل هذا مَعقول؟! أتنسَى شَبابَها المُدَمَّر.. وحُبَّها الوَحيدَ المَذبوحَ منَ الوَريدِ إلى الوَريد؟ هل تنسَى هروبَها وابتعادَها عن المعارفِ والاصدقاء إخفاءً لثمَرَةِ حُبٍّ عابثٍ مُجرم؟ هل تنسى هُجرتَها القَسريَّةَ إلى باريس، التي قلبَتِ الأحلامَ إلى آلام.. والرَّبيعَ الرَّائِعَ إلى خَريفٍ حَزين؟! عَنَّ لها أن تقتلَ الجَنيْنَ لحظةَ وصولِها إلى باريس.. وتتمَرَّدَ على مشاريعِ والدَتِها الغامضَة. ولكن.. أتُراها تقتلُ نِصفَ تاريخِها.. الوَلَدُ وَثيقةٌ بنِصفِ سَعادتِها في هذه الدَّنيا؟! أتُراها تُبقيهِ وتُبقي على تعويذةٍ.. أو مسمار جحا ليُذكِّرَها بجريمَةِ غَيث، وكيفَ داسَ على وجدانِها مثلَ حشَرَةٍ تحتَ قدَمِه؟ كانت إيميه جَبُّور مُدمَّرَةً جَسَديًّا ونَفسيًّا. وذروَةُ مرارةِ وَجَعِها اكتِشافُها أنَّها كانت تعيشُ سعادةً وَهميَّةً خادعَة. لم يكن يُحبُّها إذًا! كانَ مُمثّلاً بارعًا. أو كانَ حبُّه لها درجَةً ثانيَة في سلَّمِ أولويَّاتِه؟ أو انَّ الحُبَّ عندَه دَوَّارٌ قلاَّبٌ كحال الصَّفقاتِ التِّجاريَّةِ ورهاناتِ البزنس؟ لم تثق الوالدَةُ وَفَاء بأنَّ ابنتَها ستفعلُ ما أمَرَتْها به.. فسَافرَت وراءَها إلى باريس، وقصَرَتْ نفسَها على حراسةِ هذا الجَنيْن حتى خرُوجِه إلى الحَياة. وأخيرًا.. وَضَعَتْ إيميه مولودَها، وكانَ صبيًّا جَميلاً! واهتمَّتْ به لأشهر قليلة.. في فرَحٍ رَمَاديٍّ غامض.

ولكي لا تتَعلَّقَ بهِ إيميه كثيرًا، جاءَتْ بهِ وَفَاء إلى الوَطَن إلى مَيتم العازاريَّة في برمَّانا.. وهناكَ أطلقَتْ عليه اسمَ صَخر. وهكذا صارت تتردَّدُ الوالدَةُ وَفاء إلى المَيتَم، معَ نمُوِّ الصَبيِّ، حتى كانتِ الكائنَ الوَحيد الذي كانَ صَخر يشعرُ بأنّه حَبلُ السُرَّةِ الذي يشكلُه بهذا العالم. كأنَّها، أي وَفاء، كانت تزَوِّدُ الفتى بشُحناتِ حَنَانٍ ومَحبَّة بما يكفيه لِيَنطلقَ قاربًا ضَعيفًا شُجاعًا في بحارِ الحَياةِ وغدَرَاتِ أرياحِها العاتية. ولكنَّ وَفَاء تركَتْهُ فَجأةً ورَحَلتْ..! وفي نصفِ الطَّريقِ بَينَ طفولةِ صَخر ومُراهقتِهِ الأولى. وأمَّا إيميه والِدَتُه من غَيث فبَدَأتْ حياتُها الجَديدة في باريس. و"كنسلَتِ" الحَنيْنَ من ملفَّاتِ الذَّاكرَة. ولادةُ الصَّبيّ جَعَلتْها امرَأةً! ولكنَّ جراحةً بسيطةً أعادَتها عذراءَ كما كانت. هذا مجرَّد تمويهٍ شَكليّ.. لأنَّ التَغيُّراتِ المُخيفةَ التي حدثَت في أعماقِها جَعَلتها امرَأةً مُضاعفًا! ولا تستطيعُ الجِراحَةُ إزاءَها شيئًا. لكنَّ المظاهرَ العَينيَّة، وهكذا دائمًا، هي وثائقُ النّاس ومُستنداتُها الرَّسميَّة. وما يدورُ في ذاتِ الإنسان من صَخبٍ ولهيب.. لا يعني الآخرينَ بشَيْء.

ثمَّ بدأت إيميه تعمَلُ وتتابعُ دراستَها. عمِلت بائعَةً في السّوبرماركت، ونادلةً في المقاهي اللَّيليَّة، ومندوبةَ مَبيعاتٍ في شركةٍ لأدواتٍ ومستلزمات منزليَّة، وسائقةَ شاحنةِ نقلٍ صَغيرة في شركةِ خدَماتٍ لوجستيَّة، ومُدرِّسَةً للُّغةِ العرَبيَّة. وأنهَت شهادتَها الأولى الدَّبلوم في الهندسَةِ الدَّاخليَّة، وكان مشروعَ تَخرُّجها مَركزًا للتَّسليةِ والتَّرفيه في باريس. ثمَّ عادَتْ تُجاهدُ نحوَ الماجستير في هندَسَةِ الحَدَائق، وأحبَّتْ هذا الاختصاصَ أيضًا وحَصلَت على الشّهادة. وَاللَّعنةُ التي رافقَتها كظلِّها، في تلكَ السَّنواتِ الطّويلة من تكوين نفسِها في فرنسا، إن هي إلاَّ مَجمرَةُ الحِقدِ الذي راحَ يتَّقِدُ لهيبُهُ يومًا بعدَ يوم. عاطفةٌ سَوداءُ فاحمَة كانت تَتشكَّلُ في رَحِمِ الأيَّامِ واللَّيالي، آخذةً نُسغَها من مَرَاراتٍ.. وآلامٍ تَثِبُ من كُوى الجُرُوحِ الماضيَة، وتُجدِّدُ أرياشَها كالعَنقاءِ وتصبحُ واقعًا حاضرًا ثقيلاً كالصُّخور. بقيَ غَيث كابوسَها الذي سَرَقَ منها فرَحَ التَمتُّعِ الطَّبيعيِّ بالحَياة. غَيث الرَّاسي بالنِّسبةِ إليها شَيطانٌ رَجيم! وإذا عادَتِ الأيَّامُ وجَمَعَتها بهِ.. حَتَّى ولو كانَ عَجوزًا فوقَ سَريرِهِ، سوفَ تقتلُهُ وتحرمُهُ من بُقيا فرَحٍ ولو لساعاتٍ في دُنيانا هذه. كانَ تصميمُها ثابتًا لا رجوعَ عنه.. كأنَّه مَحَجَّتُها الأخيرَة.. أو إكليلُ أتعابِها.. بل كأنَّه التَّاجُ

الذي تريدُه أن يُتوِّجَ نَجاحَاتِها في فنِّها وَعَملِها. وهذه الشَّهوَةُ العارمَة للانتقامِ من غَيث الرَّاسي، باتت جرثومةً في شَرَاييِنها، وَحائلاً كبيرًا بينَها وبَينَ الحُبّ. عشّاقُها كثارٌ أيضًا في باريس كما في الوَطَن. وكانوا طابورًا، تمامًا كأيّامِ المُراهقة هناكَ حيثُ رَمَتِ الجَميعَ واختارَت غَيث. لقد صَدَّتِ الجَميعَ وقَصرَتْ حَيَاتَها لفنِّها ومِهنَتِها، وهيَ تعُدُّ الأيّامَ واللَّيالي في انتظاراتٍ طويلة، علَّها تسمَعُ خبَرًا عنه. ثمَّ مَرَّتِ الشُّهُورُ والسُّنون.. وعمِلَتْ إيميه في شَركةٍ لهندسَةِ الحَدائق في ضاحيةٍ باريسيَّة. وكانَ يعمَل في هذه الشَّركةِ مهندس معماريٌّ ذكيٌّ اسمُه جاك بلومار والدتُه من أصلٍ لبنانيّ. راحَ جاك هذا يتودَّدُ إليها وهيَ تصُدُّه. ولم يمضِ على وجودِهما معًا في هذه الشّركةِ شُهورٌ قليلة حتى تعَهَّدَتِ الشَّركةُ مَشروعًا متكاملاً.. فيلاّ وَحَدائقَها في مدينةِ آجاكسيو في جزيرَةِ كورسيكا الفرَنسيَّة السّاحرَة. وعهَدَتِ الشَّركةُ بالتَّرميماتِ إلى جاك والتَّزييناتِ الدَّاخليَّة والخارجيَّة إلى إيميه. ثمَّ خلال شهرَين كانتِ الخرائط جاهزة، واستقلَّ جاك بلومار وإيميه الطّائرَةَ إلى مدينة آجاكسيو وشُطآنِها الجَميلة، لتنفيذِ الخرائطِ والتَّصاميمِ الرُّومنسيَّة في فيلاّ فسيحَةٍ قريبةٍ من المَدينة. وأمّا مالكُ هذه الفيلاّ فهو طبيبٌ نفسَانيّ شابٌّ ثريٌّ منَ الجَنوبِ الفرَنسيّ. وهكذا زَجَّ القدَرُ بإيميه مَرَّةً أخرى في ساحةٍ لم تُردْها.. وهي تنافسُ المِعماريِّ والطَّبيبِ النَّفسِيّ على خَطبِ ودِّها. ومعَ أنَّ سَنَتَي العمَل في مدينةِ آجاكسيو من أجمَل إيَّامِها في بلادِ الفرَنج.. فقد خاضت إيميه تجربةً مُربكَةً تختلفُ عن تلكَ التي معَ غَيث أو ابنِ الوزير أو ما قبلَهُما. فالرَّجُلان ينتميان إلى ثقافةٍ أوروبيَّة. وهما كاملان على قياسِ أحلامِ أيِّ فتاةٍ باحثةٍ عن رَجُل. فالمِعماريُّ الذَكيُّ، وهذا بدا واضحًا، يريدُ ارتباطًا مُستمرًّا على انَّه زَوَاج، والطّبيبُ النفسيّ شابٌّ ثريّ يملكُ فيلاّ رَحبَة على شواطئِ جَزيرةِ الأحلام.. ولكنَّه لا يوحي بزَوَاج! تجربةُ إيميه الأولى الفاشلة معَ غَيث باتت عقدةً مُستَعصيَة. ولكنَّها امرأةٌ في نهايةِ المطاف، والمرأةُ تحتاجُ عاطفيًّا وجنسيًّا، من حيث المبدأ، والثقافة الأوروبيَّة تُشَرِّعُ المَصَاريع. حتى الجنس.. باتت تراهُ إيميه في عدَسَةِ التَّصديعاتِ التي أحدَثَتها جُروحُها مشوَّهًا قذرًا. ولأنَّهُ لم يَعدْ يُقنعُها الرَّجُلُ البَشَريّ.. فراحَت تعيشُ رَجُلاً مثاليًّا فَبركَتْه مخيِّلتُها الحسَّاسَة المُبدعَة في مجموعةٍ من رسوماتِها المائيَّةِ العَتيدَة.. ومعظمُها لرجَالٍ غامِضِين.. أو رَجُلٍ في ثلاثةِ أخيلةٍ في وضعيَّاتٍ إيروتيكيَّة. لقد استبدَلَتْ إيميه الجنسَ

الواقعيَّ بجنسٍ فنيٍّ خَيَاليٍّ حُرّ. وقد يكونُ هذا النَّوعُ من الفانتازيا للجنس أعمقَ نشوةً وأبلغَ سعادة! وفي النِّهاية.. ستجدُ المياهُ ثقبًا تقدرُ أن تنفذَ منه خارجَ سجنِها. هذا والكثير من حالاتِ الابداع هي في جَوهرِها تأزُّماتٌ عاطفيَّة جنسيَّة. مُحَلِّلو شَخصيَّةِ الأديب اللُّبناني جبران خليل جبران يقولون أنَّها مُشَكَّلةٌ من أصنافٍ شتّى منَ العُقَدِ النَّفسيَّة. المِعماريُّ والنَّفسانيُّ طائران فوقَ غصونِ الفاتنةِ الشّقراء إيميه جبُّور.. وهي ياسَمينةٌ وَحيدة في فراديسِ الرَّجُل الخَيَالِيِّ الذي راحت ترسُمُ فوقَ جغرافيا جَسَدِهِ أحلامَها ونشوَتَها التي توافِقُ مرارةَ نزيفاتِها الماضيَة. وكأنَّها بابتكاراتِها هذه تثأرُ لا شُعوريًّا من الرُّجولةِ جَمعاء. تعرفُ إيميه أنَّ النَّفسانِيَّ يريدُها شَريكةَ اللذَّة.. بخلافِ المِعماريِّ الذي يشبه نصفَها بالنِّسبة إلى المِهنة وإلى والدتِهِ ذاتِ الأصولِ اللُّبنانيّة. ثمَّ انتَهَى العمَلُ أخيرًا في آجاكسيو، ومرَّتِ التَّجربةُ بسَلام، وعادَ المُبدعان إيميه وجاك إلى عملِهما في باريس. وما عتمَ أن أسَّسَ جاكَ شركةً هندسيَّة له مُستفيدًا من خبرَتِه والزَّبائن والمعارف في الشَّركةِ حيث كان يعمَل مع إيميه. وطلبَ من إيميه أن تكونَ معه كشَريكة. قبلَتْ هي من فورِها لأنَّها قفزَة مِهَنيَّة مُغريَة.. من الرَّاتبِ الشَّهريِّ إلى شَريكة! مشروعان اثنان فقط.. أضْفَيَا على هذهِ الشَّركةِ النَّاميَة سُمعةً طيِّبَةً في الهندَسَة الزُّخرفيَّة. ودائمًا.. كانَ جاك مستمرًّا في إلحاحاتِه على إيميه جبُّور في موضوع الزَّواج. وذاتَ يوم.. دَعا جاك إيميه إلى تناول عشَاءٍ في أحَدِ الكازينوهات في الضَّوَاحي.. خَلاّبِ الدِّيكورات.. رومَنسيِّ الخِدمة والعُروض الموسيقيَّة والتَرفيهيَّة. وكانت إيميه متألّقَة في حُضورِها، في حلَّةٍ أوروبيَّة الملامِح والهندام. قبلَتْ دعوَةَ جاك.. وهي تحملُ له في قلبِها هديَّةً بعدَ رحلةِ معاناتِه الطَّويلة معها. قالت له بعدَ أن رشفَتْ رشفةً من كأسِها:

– جاك.. أنا موافقة.

جَحظَتْ عَينا جاك.. وسألَها متلهِّفًا:

– أتقصُدين.. أتقصدين..؟

– بلى.. أقصدُ..

– أن نتزوَّجَ؟!

– ممم.

ولم يُصدِّق المِسكينُ أذنَيْه.. فنَهضَ من مكانِهِ وشدَّها بيَدِهِ.. وراحَ يرقصُ معها على النَّغماتِ الهادئَة، وهو يشدُّها إلى صَدرِهِ بقوَّةٍ ويهمسُ في أذنِها كلماتٍ تنمُّ عن ولَهٍ حَقيقيٍّ صادق. وسَوفَ تكتشفُ إيميه عظَمَةَ حبِّهِ لها بعدَ أشهُرٍ من حَياةٍ كأنَّها النَّعيم. وخلال هذه الأشهُر القليلة كانَ التَّخطيط للزَّواج على قدَمٍ وساق. ثمَّ ذات يوم.. وهما في قمَّةِ السَّعادَة.. تهزُّها المفاجأةُ المأسَاة! والتي استَحضرَتْ لعَنَاتِ السَّنَواتِ الماضية جَميعَها استِحضارًا مُخيفًا. لقد سقطَ جاك بلومار من الطَّبقَةِ الثالثة في ورشَةِ المشروع ومات من فوره! فغاصَتْ روحُها في نفَقٍ أشدّ قتامًا من تجربتِها الأولى معَ غَيث. كأنَّ السَّعادَةَ حَديقةٌ مَسحُورة خَجِلةٌ من إيميه جَبُّور.. فما إن تصلُ إلى بوَّابتِها حتى تختفيَ وراءَ سُحُبِ الضَّبَاب. لقد كتَبَتِ الأقدارُ لبَعضِهِم ألاّ يذوقوا من دُنيانا غيرَ الوَيْلات. وهكذا انقلبَ النَّعيمُ فجأةً إلى جَحيم. وبعدَ مرورِ أسابيع على وفاةِ جاك بلومار الصَّادمة، جاءَ رجلٌ إلى الشَّركةِ كانت قد رأتْهُ إيميه في مراسيم الدَّفن، وطلبَ الانفرادَ بها. جلسَ مقابلَها على الكنبَةِ وأشعلَ سيكارتَه، وقالَ لها بلا مقدِّمات:

– أنتِ الآنسة إيميه جَبُّور خَطيبَة جاك بلومار وَمهندسة ديكور وحَدائقيَّة. أنا مُحامي الشَّركة. لماذا لم ترسلي في طلبي بعدَ وفاةِ جاك؟

– سيِّدي.. لم نخرجْ بعد من أحزانِنا. وأنا شخصيًّا لا زلت غير مصدِّقة لما حدَث.

– حسنًا. ما على الرَّسول إلاّ البلاغ. في الحَقيقة كانَ جاك يريدُ أن يزفَّ لك هذا الخبَر بنفسِهِ كهديَّةٍ لكِ.. المِسكين.. حرمَه القدَرُ من أمنيتِهِ هذه...

– ماذا هناكَ أيُّها المُحامي؟

– أنتِ الآنَ مالكةُ هذِهِ الشَّركة. لقد سَجَّلَها باسمِكِ قبيل وفاتِه بأيّام. وأنتِ الآنَ حُرَّة التَصرُّف بها من النَّاحية القانونيَّة. وأنتِ مواطنة تحملين الجنسيَّة وتنطبقُ عليك الحُقوق

والواجبات كأيِّ مواطن فرنسيّ. مبروك آنسَة إيميه جَبُّور.. أرجو أن توَقِّعي لي على أوراق التَّنفيذ. وأنا حاضر لأيِّ مساعدَة.

وسحَبَ المُحامي من حَقيبتِهِ ملفًّا.. وقال:

– إنّها مَجموعة من النَّصائح تركَها لكِ جاك، كأنَّه استشعرَ الكارثَةَ عن بُعد.. وتُعطيكِ الصَّلاحيَّة المُطلقَة في العَمَلِ بالشَّركةِ ما ترَينَه مُناسبًا.

ومنذ تلكَ اللَّحظة أصبَحَت إيميه جَبُّور مالكة شركة B.DECO VIEW التي أسَّسَها جاك بلومار، عَريسُها العَتيد الفَقيد. وهكذا انطلقَ العَهْدُ الثالثُ من حَياتِها العابثةِ الغريبة. وهذه الشَّركة ستنمو وتتمَدَّد.. وسوفَ يكونُ لها فرعٌ ناجحٌ في بيروتَ أيضًا بُعَيدَ اغتيال الرَّئيس الشَّهيد رَفيق الحَريري، تحتَ اسم: J.DECO VIEW.

*****

روجين آتشي.

أو الرَّاقصة والمغنِّيَة المُثيرَة.. روجا.

كانت صدفة..! تصويرُ لقطَةٍ بَسيطَة في فيلمٍ وثائقِيٍّ من رُبع ساعة، القطبَةُ المَخفيَّة التي شَكَلَتْ ماضي التُركيَّة الجَميلة روجين بمستقبلٍ فنيٍّ كادَ أن يكون باهرًا نظيفًا شَريفًا.. لولا أن اصطادَتْها نُشَّاباتُ الظُّلمَةِ الخَبيثة. مُصوِّرُ المَشهد ومُخرجُ الفيلم في ذلكَ اليَوم التَّائهِ من المُراهقةِ البائسَة، وإثرَ خُرُوجِها من السِّجن، كانَ مُصوِّرًا فوتوغرافيًّا أيضًا، يتحَرَّى أخبارَ الجَمَالِ أنّى وُجدَ ليُظهِّرَهُ لوحاتٍ أخَّاذةً في سِحرِ عدَسَاتِه المبدعة. وهذا المُخرجُ المُصوِّر صديقٌ لقَوَّادٍ خبير.. رفعَتْ. وليسَ رفعَت هذا كالقَوَّادين العاديِّين! بل هو نَوعٌ ذو خصوصيَّةٍ وتميُّز.. هو قوَّادٌ "للفَنِّ الغانِي" أو للفنَّاناتِ الغانيات. فُتِنَ المُصوِّرُ بروجين أثناءَ تصويرِهِ إيّاها في الفيلم في أحَدِ شوارع بيروت. فعرَضَ عليها أن يأخذَ لها مجموعة من الصُّوَر وأعطاها المالَ سلفًا.. فقَصَّتْ عليه عندئذٍ مأسَاتَها كاملة طالبةً المُساعدَة. فجاءَ بها المُخرجُ من فورِه إلى منزلِهِ في فرن الشبّاك، وأطعَمَها واستَحمَّت، ثمَّ أدخلَها إلى غرفةِ التَّصوير في الطَّبَقَةِ الثانية،

وجعلَها ترتَدي ما يناسبُها ووَضَعَ لها التَبَرُّجات، ثمَّ راحَ يُصوِّرُها في وَضعيّاتٍ متنوِّعَة، وكلّ مجموعة من الصُّوَر في لباسٍ مختلف. ثمَّ اتّصلَ من فورِه بصديقِهِ رفعَت.. وحضرَ هذا الأخير في اليومِ التّالي ورأى روجين والصُّوَر.. وكانتِ الصُّوَر مُذهلة! سألَ رفعَتْ روجين:

– أينَ تعيشين يا روجين؟

– أنا مقطوعَة من الشَّجَرَة. أحتاجُ لمَكانٍ أبيتُ فيه.. وأحتاجُ أيضًا لعَمَل. قالت متوسِّلة.

– حسنًا يا روجين.. لقد حَصَلتِ الآنَ على وَظيفة. ستعملينَ معنا براتبٍ يُعجبُ خاطرَكِ. ولكن في المرحلةِ الأولى سنعلِّمُكِ الغناءَ والرَّقص.

فأجابت روجين من فورِها:

– أنا أرقصُ جيِّدًا يا أستاذ.

وقامت تهُزُّ له خصرَها، وتخطو الخطواتِ المُغريَة التي تعلَّمتها في السِّجن على يدَي رَاقصَةٍ سَجينة. وكانت حركَاتُها تنمُّ عن فطرَةٍ في الدّلَعِ والاغواء. كانت بالنِّسبةِ إلى رفعَتْ كنزًا.. بل فَتحًا عَظيمًا! وساعدَتْها "نَتعَةٌ" في صَوتِها في الغناءِ الغربيِّ الذي أجادَتْهُ دونَ أن تتعلَّمَ اللُّغَة. وهكذا مُسِخَتْ روجين آتشي، على يدَيِ الدَّاهيَةِ رفعَتْ، إلى روجا الفنَّانة المُثيرَة، وصاحبةِ الرَّقم العالي في الصَّفقاتِ السِّريَّة. لقد أصبَحَت، وخلال سنَتَين من الزَّمان طبقًا لذيذًا دَسِمًا على مائدةِ الشَّهَواتِ اللاَّهبَة لعِلِيَةِ القَوم. وأسدَلَتْ نجُوميَّتُها الزَّاغبَة السِّتارَةَ على الفصولِ الشَّريفة من حَيَاتِها. والجمالُ في أحيانٍ كثيرَة ليسَ حِلِيَةً البتَّة، بل هو عَبدٌ ماردٌ قاتلٌ لصاحبِهِ. لقد أصبَحَت سلعةً..! ولكن غالية الثَّمَن. الكذبُ والرِّياءُ والقذارَة هي فَضَاآتُ صَولاتِها "الفنِيَّة المتألِّقة". ثمَّ عادَتِ الأيَّامُ والسُّنون وهَرولَتْ من جَديد.. وسَريعَةَ الخُطى. والنَّاسُ رُكَّابٌ عندَ محَطَّاتِ الزَّمَن تقلُّهُم قاطِرَاتُ الأحداثِ إلى المَحتوم والمَقسوم.. ولا شيءَ غيرَ ذلك أبدًا. وهناك.. في محَطَّةٍ ما تتقارَبُ السِّكَكُ الحَديديَّة وتتواجَهُ شَبابيكُ القاطراتِ وتتصَافحُ الوَجوهُ والحِكايات.. وتَخفقُ الأفئدَة. وهذا التَّلاقي.. ربَّما.. هو الذي راهَنَتْ عليهِ وَفَاء والدَةُ إيميه جَبُّور.. فكانَ اللِّقاءُ الحَتميُّ بينَ روجا والسِّياسِيِّ الغريبِ الأطوار غَسَّان الجُردي.

غَسَّان من عِلِيَةِ القَوم من حيثُ المَبدأ! وروجا خادمةٌ على مائدَةِ مزَاجِه ونزَوَاتِه. والعُقدةُ التي رَبَطَتِ الحَبلَين هي القوَّادُ رفعَتْ.. وقبَضَ إكراميَّةً "حرزانة" من غَسَّان سلَفًا. ومنذُ اللَّيلةِ الأولى في قبوِ اللَّذَّاتِ فُتِنَ غَسَّان بروجا لدرَجة الهَوَس.. فضيَّقَ عليها بعد ذلكَ وأغدَق. وفي البدايةِ كانَ حُجَّابُ رفعَت يوصلونَها إليه في شقَّتِهِ السِريَّةِ في بلدةِ البربارة السَّاحليَّة.. قبوِ المزاج! ثمَّ بَقيَت روجا بعدَ ذلكَ في صُحبَةِ غَسَّان الجردي سَنَواتٍ طويلة.. وكانتْ لِقِطعَةٍ من العُمْر خَليلتَه المُدَلَّلة.. دَلالاً يُشبهُ تمامًا "دَلالَهُ" لمُنير سويدان وزَوجتِه وَ"نجلِهِ" صَخر. وهكذا سيكونُ غَسَّان الجُردي بدَورِهِ في زَمَنٍ ما، تلكَ المحَطَّةَ التي ستجمَعُ قِطارَين مُتوازيين متباعِدَين أيضًا هما روجا وَصَخر. وَروجا سوفَ تصِلُ إلى قمَّتِها.. في تمثيلِ مأسَاتِها كنادِلةِ مآدبَ لذَّةٍ لعِلِيَةِ القَوم. كانَ لديها الكثيرُ من المال.. وادَّخَرَتْ منه الكثيرَ الكثير.. ولَكنَّها عادَتْ فأنفَقَتْهُ على سَفَريَّاتِها وتَرْحالِها في بلادِ اللهِ الواسعَة. وكانتْ تُعطي الجَمعيَّاتِ الإنسانيَّةَ والاجتماعيَّةَ أيضًا!! لاستِغفارِ السَّمَاءِ.. على خَطيئَتِها ربَّما! كانَ السَّفَرُ الهامشَ الوَحيدَ الذي لجَأتْ إليه هرَبًا منَ النَصِّ الدّراميِّ الحَزين الذي كانت تعيش. مِهنتُها الظَّلاميَّة هذه منَعَتها من الظّهور الإعلاميّ.. إنّها ملاكُ اللذَّة.. وهي الشَّبَحُ الجَميلُ الذي يَتجَلَّى لسياسِيٍّ أو اقتِصاديٍّ أو متنفِّذٍ استجابةً لتبرُّعاتِهِ إلى جَيْبِ الوَسيط رفعَت. لقد أصبَحَت روجا أسطورةَ "العالمِ التَّحْتِيّ". والعلاقة بين غَسّان الجُردي وروجا مُستمرَّة.. والحاجَة مُتبادَلة بينَ الاثنَين.. هو في ألاعيبِهِ تحتَ الطّاولة، وهي في ظهيرٍ حامٍ في المُلمَّات.

ثمَّ عادَتِ السُّنون تكرُّ كرُورًا آخذةً من عُمْرِ البَشَرِ مَؤُونتَها.. وبدأ رَبيعُ الشّبابِ يُصَافحُ الخَريف.. وآنَ أوانُ وَداعِ السِّحْرِ والجَمال. ولكنَّ غَسَّان بقيَ مُخلِصًا لرُوجا يزورُها مرَّاتٍ في السَّنة ويُعطيها المالَ عندَ الحاجَةِ بلا حِسَاب. وهكذا عشرون عامًا كانت كافيةً لتطفئَ توَهُّجاتِ الأسطورَة روجا، وتفتحَ لها بَوَّابةَ حديقةِ الوَحشَةِ والعُزلة. وذاتَ يوم.. وفي شتاءٍ بارد.. طلبَ غَسَّان من شبَحِهِ الشُّجاع صَخر سويدان أو يوصِلَ مبلغًا من المال في شيك إلى روجا في شقَّتِها في محلَّةِ حرش تابت. وكانَ المَطرُ في ذلكَ المَسَاءِ غزيرًا. ركَنَ صَخر سيَّارَته قربَ بنايةٍ لا شَيْءَ مُضيئًا فيها غير غرفةٍ واحدَة هي غرفة الجُلوس عندَ روجا، وهي المَرَّةُ الأولى التي يذهبُ فيها صَخر إلى

شقَّتِها. ثمَّ وثبَ بسرعةٍ إلى الرَّدهةِ واستقلَّ المصعَدَ إلى الطبقةِ الرّابعة من ذلكَ المَبنى الفَخمِ الكبير. قرعَ جرسَ البابِ ففتحَت له امرأة ستِّينيَّةٌ، تُزيِّنُ شَعرَها الخُصْلاتُ البَيضاء، والمَلامحُ تَشِي بجَمَالٍ آسرٍ أكسَبَتْهُ السُّنونُ هَيبَةً. بَدَتْ رُوجا لصَخر في عَبَاءَتِها الصُّوفيَّةِ التي غَطَّتْ جسَدَها من الكتِفَين حتّى القدَمين، كأنّها أميرَةٌ متَحدِّرَة من سُلالةٍ ملكيَّة منقرضة... وكانَ هذا اللّقاءُ هو الأوّل بينَ صَخر سويدان وروجين آتشي. لأنَّ بعضَ أسرارَ غَسَّان الجردي لم تكن مَشَاعًا لحُجَّابِهِ ومُساعديه. هذا والاثنان مشكولان بحَيَاةِ غَيث الرَّاسي أيضًا بواسطةِ مأساة.. لكلٍّ منهما مأساتُه.. والاثنان من نتاجِ عَبَثاتِ ووُصوليَّةِ غَيث المُفرطة في الذَّاتيَّة، والتي تدوسُ على ذَوَاتِ الآخرين غيرَ عابئةٍ بتألُّم الإنسانِ فيها.

*****

الورقة الخامسة عشرة

إنْ لمْ يَكن هُناكَ ما يُنقذْنا
منَ المَوْت ..
فليُنقذنا الحُبُّ ..
على الأقَلّ ..
منَ الحَيَاة !

بابلو نيرودا

لندن أيلول ٢٠١٦.

إنّه اللِّقاءُ الثّالثُ والأخير، بينَ المُحَقِّق شَكيب مْدَوَّر والشَابّ الأربَعينيّ صَخر سويدان.

والرَّجُلان جالسان إلى طاولةٍ لشَخصَين، تُظلِّلُهما شَّمسيَّةٌ زَرْقاءُ مُربَّعَة، على رَصيفِ أحَدِ المقاهي اللَّندنيَّة التَقليديَّةِ الطّابع، والمُتَناثرَة على ذلِكَ الطَّريق الهادئِ المُوَاجهِ لنَهرِ التَّايمز، حيث الدّرابزون الخَشَبيّ المُزَخرَف، والأشجارُ المُمتدَّة عبرَ الرَّصيفِ البَعيد، كلَّ عشرين مترًا شجَرة، ممَّا يُضفي على هذه البُقعَة جَوًّا شاعريًّا مُؤنسًا. السيَّاراتُ قليلة.. والمَارَّةُ كأنَّهُم هياكلُ وألوانٌ وَهميَّة تتَحَرَّكُ وتتدَاعى.. لتؤلِّفَ خَلفيَّةً دراماتيكيَّة لصَوتِ وكلماتِ صَخر سويدان، وهو يَروي خاتمَةَ حِكايَتِهِ للمُحَقِّق شَكيب مْدَوَّر الذي

كادَ صَبرُهُ أن يَنفَد. أشعلَ المُحَقِّقُ سيكارَه ومَجَّ مَجَّةً في الفَضاء، ثمَّ رَشفَ رشفةً من قهوتِه، وقالَ لصَخر:

– أتوَسَّلُ إليك.. خلِّصني الآنَ من فيلمِكَ الأميركيِّ الطَّويل الذي بَدأتَ به منذ أيَّام.

– حسنًا أيُّها المُحقِّق. لقد حدَّثتُكَ حتى الآن عن الخَلفيَّةِ الكاملة.. وَالأسباب والدَّوَافِع وَ..

– والآن الجَريمَة! والقاتلُ فيما لو كانت حقًّا جَريمَة. قاطعَ المُحَقِّقُ كلامَ صَخر.

– من وجهَةِ نَظَري.. هيَ جَريمَةٌ وليسَت جَريمَة.. ولكنَّها حَتميَّةٌ تاريخيَّة لغَريزَتِنا.. إنَّها لعنَةُ الذَّاتِ المُشتعِلةِ في دَوَاخلِنا، وَتواطؤُ الأقدارِ السَّاخرَةِ معَ ذلكَ الخائنِ الجَريء المُختبئ في كواليسِ ماضينا.

– أرجوكَ يا صَديقي.. لا أريدُ أن أسمعَ فلسَفةً.. أريدُ الحَقيقة. قالَ المُحقِّقُ في نبرَةٍ تنِمُّ عن شَوقٍ طفوليٍّ لمَعرفةِ مُلابَساتِ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥.

رَشفَ صَخر رَشفةً هو الآخر من قَهوتِه، ثمَّ راحَ يتكلَّم:

– عادَ غَيث الرَّاسي من أميركا رَجُلَ اقتصادٍ كبيرًا، والبلَدُ يتخبَّطُ في اضطِراباتٍ وَمَشاكِلَ لا حَصْرَ لها. ثمَّ راحَ يُنشِئُ في بيروت شَركةً تلوَ الأخرى. وَعَنَّ له أخيرًا أن يلعبَ في السِّياسَة.. ربَّما، للحُصولِ على "وَثيقةٍ بَيْضَاءَ" يشتري بها "تجَارتَهُ السَّوداء" العَتيدَة. من هنا كانَ اللّقاءُ حَتميًّا بينَه وبينَ غَسَّان الجُردي. غَسَّان الجُردي الذي حاولَ أن يُرَشِّحَهُ مَرَّةً، ويُظهِّرَهُ للرّأي العامّ في الانتخابات كمُنقِذٍ إقتصادِيٍّ مُلهَم، فتحَمَّسَ غَيث في البدايَةِ، ثمَّ تراجعَ وانسَحَبَ من حَمْلةِ غسَّان الانتِخابيَّةِ الفاشِلة. وأمَّا أنا.. وابتداءً من عام ٢٠٠٠، أصبَحَتْ علاقتي وَطيدَةً بغسَّان الجُردي.. وكنتُ رَجُلَهُ الخَفِيّ! ثمَّ أنشَأتُ بعدَها شَركتي الخاصَّة، وبمُساعدَتِهِ طبعًا، لأمْنِ وحِمَايةِ السِّياسيِّين ورجالِ الأعمال. ولكنَّ اسمَ غَيث الرَّاسي.. لم يَطأ مصطبةَ سَمْعي، ويَرُجَّ قبَّةَ ذاكرَتي، إلاّ عندما تحَدَّثَ إليَّ غَسَّان الجُردي ذاتَ يوم وقال:

– غَيث الرَّاسِي.. إقتِصَاديٌّ كبير عائدٌ من أميركا. وهو بحاجَة لخمسَةِ رِجالٍ بمواصفاتٍ عاليةٍ لحِراسَتِهِ. وأريدُ منكَ أن تخدمَه يا صَخر.

لست أدري بالضَّبط ما الذي حدَثَ في داخلي. لا أعرفُ إذا كنتُ سَعيدًا أو حَزينًا، متشائمًا أو متفائلاً. كأنّي نَهرٌ متدفِّقٌ من الجبال.. وعندَ وصولي إلى البَحرِ أصبَحَتْ مياهي لا حُلوَةً ولا مالحَة! بقيتُ لأيَّامٍ مضطربًا أفكِّرُ في حَيثيَّاتِ لقائي بغَيث. ولكنَّ الأسئلة التي ناطَحَت عَقلي كثيرة. أتُراهُ مجرَّد تشابهٍ في الأسماء؟ وإذا كانَ هو نفسُه صاحبَ الاسم المَدَوَّن على غلافِ إنجيل وَفَاء.. جَدَّتي! ما هي الخَطوة التاليَة؟ كيف أعلنُ له هُويَّتي؟! وما هي رَدَّةُ فعلِهِ؟! أقنَعتُ نفسي بضَرُورَةِ التَريُّثِ قبلَ الشُّرُوعِ برَسم خارطةِ طريق. وَعملي معَه، في كلِّ الأحوال، سيَجعلُني في الدّائرَةِ الضيِّقة حيثُ الفرَصُ وفيرَة. ومع القليلِ منَ التَحرِّيات سأصِلُ إلى مُبتَغاي، وسوفَ أكتشِفُ لُغزَ غَيث الرَّاسي، هذا المارد الذي حشَرَتهُ وَفَاء في قمقمِ كلماتٍ قليلة وَأودَعَتني إيَّاه. وَوَفَاء نفسُها لغزٌ هيَ الأخرى! تلكَ المَرأة المَهيبَةُ الرَّقيقةُ التي رَوَّتْ طفولتي من حَنَانِها في مَيتَمِ راهباتِ العازاريَّة. وسُرعانَ ما جَاءَني جَلاءُ كلِّ تلكَ التّساؤلات. لقد اتَّصَلَ بي غَسَّان الجُردي ذاتَ يوم ليَدعُوَني لتناولِ الغداءِ عندَه في البَربارَة ليُعرِّفَني بغَيث الذي كانَ مَدعوًّا أيضًا. فسَرَّتني الدَّعوَة كثيرًا. وكانَ هذا لقائي الأوّل به، بينَ لقاآتِنا القليلةِ جدًّا قبلَ الحَادثة، فقد كانت رحلتي معَ غَيث قصيرةً جدًّا. أذكرُ جيِّدًا.. كانَ يومَ سَبت.. وصَلتُ حوالي السَّاعةِ الثانية عشرة، ركَنتُ سَيَّارَتي في المَرأبِ الفسيح، ومَشَيتُ بمُحاذاةِ الحَديقةِ نحوَ مَدخل تلكَ العَمارَةِ الفَخمَةِ واستَقَلَّيتُ المصعَد. قرعتُ البابَ وفتَحَتْ لي خادمَةُ البَيت، وسَمِعتُ صَوتَ الرَّجُلَين يُقَهقِهَان.. واتَّجَهتُ مباشرةً نحوَ مصدَرِ الصَّوت. كانا جالسَين يشربان الويسكي ويَتسامران. رآني غَسَّان.. قامَ وقالَ:

– هه.. هذا صَخر سويدان.

واقترَبَ منِّي وصَافحَني بيُمناهُ وسيكارُهُ بيُسراه.. وقرَّبني من ضَيفِهِ الذي وقَفَ بدَورِه وصَافحَني. وتابعَ غسّان كلامَه:

– دَعني أعَرِّفْكَ يا صَخر على السيِّد غَيث الرَّاسي.. أحَد أبرز الاقتصاديِّين اللبنانيِّين في المَهْجَر. وقرَّبَ رأسَه منِّي وأضافَ في شبهِ همس، وَغَيث يَسمَعُ الكلام:

– ولأنَّ عُيُونَ الحاسِدِين والفضوليِّين كثيرة من حَولِه.. فهو كثيرُ الحَذَر.. ومن يقومُ على حِرَاستِهِ يجبُ أن يكونَ يقظًا جدًّا.

ثمَّ جَلسنا ثلاثتُنا.. ورُحنا نتسامرُ في مواضيعَ شتَّى. في السِّياسَةِ والاقتصاد. وأخبَرَنا غَيث طرائفَ كثيرَةً عن رحلةِ نضالِهِ في دُنيا البزنس في أميركا. وأمَّا أنا.. فكنتُ قليلَ الكلام كثيرَ التَّفكير. أتأمَّلُ هذا الإنسانَ نِصفَ الشّائب، المُمتلِئَ الجُثَّة، قاتمَ المَلامِح، أنيقَ الهندام، ذا جاذبيَّةٍ وكاريزما في حَديثِه، ويستخدمُ الأرقامَ في كلامِه مُختصرًا فيها الكثيرَ من المَضامين. كان واضحًا أنّه يُباهي بإنجازاتِهِ واثقًا بنفسِهِ حَدَّ التبَجُّح. وكانَ واضحًا لي أيضًا مَيلُهُ السِّيَاسِيّ ورَغبتُهُ للعَمَل في السِّياسَة. ومعَ كونِه ستِّينيًّا كما وشَتْ خصلَهُ البَيضاءُ والخُطوطُ الطَّفيفةُ فوقَ جَبينِهِ وتحتَ عَينَيه، كانَ بَهيَّ الطَّلعَةِ والحَيَاةُ تليقُ به. وكنتُ أحدِّثُ نفسي أثناءَ كلامِه: "أيُعقلُ أن يكونَ هذا الرَّجُلُ والِدِي.. وأبي الذي لا أعرفُ عنه شيئًا غيرَ الاسم؟ لماذا لم تترُكْ لي وَفَاءُ المَزيدَ من المعلومات عنه؟ لماذا أبقتْ لي اسمَ غَيث الرَّاسي لُغزًا مُخيفًا.. واختفَتْ هي الأخرى آخذةً أسرارَها وأحاجيَها معها؟". كانَ الجَوَابُ الذي سكَنَ قلبي منذ تلكَ السَّنَواتِ البَعيدَة.. أنَّه لا بُدَّ وَفَاء كانت ستُخبرُني بالحَقيقَة.. ولكنَّ الموتَ عاجَلَها.. وسَرَقَنِي! والقدَرُ لم يَقلْ كلمَتَه النِّهائيَّة بعد في هذه القَضيَّة.. ولكنَّه مَطَّها أربَعينَ عامًا.. ليَضَعَ لها خواتيمَها الدَّاميَة، وتذييلاتِها الحَزينة في الوقتِ الذي رآه مناسبًا، ثمَّ أسدَلَ السِّتَارَةَ في المَشهَدِ الأخير. كانت وَفَاء تُراهنُ على شَيْءٍ ما.. وظنَّته خَيْرًا.. ولكنَّ الرِّياحَ تجري كما لا تشتهي السُّفُن. لقد أمسكتِ الحَقيقةُ بيَدي وأركَضَتْني وراءَها في بَرِّيَةِ تلكَ السَّنواتِ الطّويلةِ الشَاقَّة.. وتعَرَّتْ أمامي فجأةً! لتقولَ لي في شبهِ سؤال: "هذا أنا.. أليسَ من الأفضل لكَ لو لم تَعرفْني يا سيِّد صَخر؟".

ثمَّ حَضَّرَتِ الخادمَةُ المائدَة، فدخلنا غَسَّان وَغَيث وأنا وتناولنا الغداء، وشَربنا العرَقَ أيضًا، وتسامَرْنا وضَحِكنا كثيرًا. وأرادَها غسَّان الجُردي هكذا ليُقرِّبَ بَيني وبَين غَيث. ولكنَّ غَيث لم يتَحدَّثْ بمَوضُوعِه إليّ.. ولا بادَرَ غَسَّان بشَيء. وانتَهَينا من الغداء، وشربنا القهوَة. ثمَّ أشعَلَ غسَّان سيكارَهُ وقالَ مُنتَحنِحًا:

– أرجو أن تأذنا لي لبَعض الوقت، لدَيَّ قليلٌ من العَمَل في مَكتبي، وأنتما لديكما ما تتحَدَّثانِ به. البَيتُ بَيتُكُما.. سأعود.

فقلتُ أنا لغَيث من فوري، يَحدُوني الشَّوْقُ إلى حَديثِه:

– حسنًا.. لماذا لا نتمَشَّى في الحَديقة؟ فَوَافق.. وَخرَجنا إلى الحَديقة. قالَ لي:

– أنا بحاجَة إلى خمسَةِ رجالٍ "قبَضايات" يا سيِّد صَخر.

– أمرُك عالرّاس وعالعَين سيِّد غَيث. الموضوع شِبهُ مُنتَهٍ.

– ولكن.. هؤلاءِ ليسوا همُ الخِدمَة التي أريدُها منكَ في الحَقيقَة..

– قل ما تُريد.. وأنا حاضر لأيِّ خِدمة. السَيِّد غَسَّان الجُردي عزيز على القلب ونحن مديونون له بالكثير، وأنتَ تستَحِقّ.

فتابعَ غيث كلامَه، بعدَ أن أشعَلَ سيكارَةً ونفَثَ الدُّخانَ في الهَواء.

– أنت تعرفُ يا صَخر.. رجُلُ أعمالٍ مثلي له تاريخ.. تاريخ حافل! أقصد منافسون، حُسَّاد، كائدون، مُنتقمون ينتظرون فرصَةً للهُجُوم عليه..

كانَ كلامُه هنا يَهُزُّني هَزًّا مُخيفًا!! لقد وجَدتُ فيه خُيُوطًا.. بل دُرُوبًا مَفتوحَة للبَدءِ برحلةِ اكتشافِ هذه الشَّخصيَّة الأحجيَة.. والتي جَمَعَني القدَرُ بها جَمعَةً تافِهةً لا مَعنًى لها البتَّة. بدأ غَيث يَتحدَّثُ عن أسرارِه. وأنا مُحتَرفُ الحَيَواتِ التي تلفُّها الأسرارُ والخَفايا الكثيرَة.

– ماذا تقصدُ بجَمْعَةٍ تافهةٍ لا مَعنًى لها يا صَخر؟ قاطعَ المُحقِّقُ كلامَ صَخر بسُؤال.

– ستعرفُ في النِّهَاية أيُّها المُحقِّق.

وقالَ غَيث:

– هناكَ أعداءُ يكمنون لي.. وليسَ هكذا فقط.. بل هناكَ تهديداتٌ حَقيقيَّة مباشرَة.. أقصدُ تهديدًا بالقتل!

فأجَبْتُه من فوري:

– خلال أيَّام قليلةٍ ستكون في حمايةِ أفضل رجالي.. اطمئِنّ سيِّد غَيث.

– لا لا.. يا صَخر. أعرف بأنَّ رجالَكَ ذوو بأس. ولكنّي طالبٌ منكَ خدمةً خاصَّة مُحَدَّدَة.. وسِريَّة للغاية! حتى غَسَّان الجُردي لا يعرف ما سأطلبُه منكَ الآن.

– لقد شَغلتَ لي بالي سيِّد غَيث.. أفصِح عن مُرادِكَ وأنا رَهنُ بنانِك.. وأنا بئرٌ عميقَة!

– أريدُ قاتلاً مأجورًا. قالَها بحَزم.

كانَ كلامُ غَيث هنا مُفاجأةً كبيرَةً لي! وبَدأ التوتُّرُ يزحَفُ إلى قلبي. ثمَّ أضاف:

– أريدُ أن أتغَدَّاها قبلَ أن تتعَشَّاني تلكَ العَاهِرَة!

– أهيَ امرَأةٌ تلكَ التي تُهدِّدُكَ سيِّد غَيث؟ سألتُه مُستغربًا، وأجابَ بوضوح:

– صَحيح. إيميه.. إيميه جَبُّور مُهندسة الدِّيكور وصاحبة شركة J.DECO VIEW.

وقاطَع المُحَقِّقُ كلامَ صَخر مَرَّةً ثانيَة وقال:

– حَدسي يُنبئُني بأنَّ إيميه جَبُّور هذه تحتلُّ حيِّزًا هامًّا في هذا الموزاييك الطّريف.

وَتابعَ صَخر:

– ثمَّ حَدَّثَني غيث عن إيميه وشَركتِها قليلاً.. وَفرُوعِ شَركتِها وشُرَكائِها في لبنان وفرنسا. وقالَ لي بأنّها تسكنُ في شُقَّةٍ فسيحَةٍ فخمَة في الرَّابيَة. لستُ أدري.. لقد ضَيَّعتُ نفسي بالكامل في هذا الطّابور منَ المُستجدَّات المُدهشَة. حَيَاةُ المَشاهير عجائبُ وغرائب! لقد شَدَّتني حكايةُ غَيث الرَّاسي وإيميه جَبُّور لدرجة أنّي نسيتُ حِكايَتي أنا. ورأيتُ أنَّ لا وقتَ الآن لمَوضوعي معَه.. ولأترُكِ العِلاقة بَينَنا تَقلِبْ قلَبَاتِها من تلقاءِ نفسِها، وتُعلنْ لي بإرادَتِها عَمَّا أنا ساعٍ إليه. أخذتُ أفكِّرُ في إيميه جَبُّور هذه.. من عَسَاها تَكون؟ وأيّ عُقدَةٍ مُخيفةٍ شَكَلتها بتَطريزاتِ غَيث البزنوسِيَاسيَّة. وقالَ لي بأنّها عَزْباءُ ثريَّة، قصرَتْ حَياتَها لمِهْنتِها وقد انجَزَتْ تُحَفًا هندسيَّة تاريخيَّة، وحَصَلتْ على جوائزَ عالميَّة أيضًا. بالمُختَصَر.. إيميه جَبُّور امرأةٌ ذكيَّةٌ قويَّة. ثمَّ قالَ لي أخيرًا:

– إيميه بالنِّسبةِ إليَّ عَدُوٌّ خَطير.. بل قضيَّةُ حَياةٍ أو مَوت! وأنا لا أريدُ لهذِه السَّاحِرَة الجَميلة، أن تستَحضِرَ منَ الماضي شَعوَذةً لتلوِّثَ وتدَمِّرَ تَعَبي وَجَنَى عُمري.. فالسُّمْعَة موضوعٌ حَسَّاسٌ جدًّا لكلِّ من يُريد أن يشتَغلَ في الشَّأن العامّ. وأنتَ ذكِيٌّ وشُجَاع.. حَدِّدْ لي الرَّقمَ الذي تُريد.

ثمَّ تركتُ غَيث في ضَيَافةِ غَسَّان الجُردي في البَرْبارة، وعُدتُ إلى بَيروت.

لم أعطِ غَيث مُوافقَتي، وَطلبتُ وقتًا للتَّفكير. معَ أنِّي لمْ أقتُلْ في حَيَاتي لا بأجرَةٍ ولا بغيرِ أجرَة! فأنا لستُ قاتلاً. وكانَ عليَّ أن أرفضَ طلبَهُ من فوري. ولكنَّ الدّرَاما النّاشبَة بينَه وبَينَ إيميه بدَتْ لي مُثيرَةً مُشَوِّقة، وحَلقاتُها قد تُفضِي إلى هوامشَ مُفيدَة لِعَمَلي. شَعَرتُ بعضَ الشَّيء كأنِّي فأرٌ علقَ في المَصيدَة! والخيارات مَعدومَة. كانَ اسمُ غَيث الرَّاسي في الماضي حلُمًا جَميلاً.. وإذا بهِ الآنَ كابوسٌ مُرْعِب! أيّ تَعويذَةٍ أودَعَتني إيَّاها وَفَاء؟! لم أفكِّر قطّ في القاتِلِ المأجور.. ولم اعْطِ رَدًّا لغَيث.. كانت إيميه وَحدَها، وطوالَ أسبوعَين، قبلةَ أفكاري. وَفَجأةً! هبَطَ عليَّ الوَحيُ ذاتَ مسَاءٍ، وأنا أشاهدُ فيلم أكشن أميركيّ وأشرب كأسًا. كانت فكرَةً مُلهَمَة! يجبُ أن أذهبَ إلى إيميه جَبُّور وأزُورَها في شُقَّتِها في الرَّابيَة. يجبُ أن أقابلَها وأحادثَها. لماذا؟ لستُ أدري. الفضوليَّةُ دائمًا دينامو الاكتشافات، وأنا أريدُ أن أعرفَ سِرَّ التَّحَاقُدِ المُتبادَل بينَهما، ولماذا هيَ قادرَة على تَدميرِ إنجازاتِه؟ والمَعلوماتُ عنها تُفيدُ مِهْنَتَنا. وفي الطّريق علَّني أصادفُ حَقيقةَ غَيث بالنِّسبَةِ إليّ. وهكذا كان.

حَصَلتُ على أرقامِها على مواقع السُّوشَل ميديا واتَّصلتُ بها، وعرَّفتُ عن نفسي أنّني مالكُ شركةِ أمنِ وحِمايةِ الشَّخصيَّات، عارضًا عليها خدَماتي كونَها هي أيضًا من عِلِيَةِ القَوْم. ولقد أدهشَني ابتهاجُها بي وترحيبُها المُلِحُّ الغريب.. فضَرَبتْ لي موعِدًا لكي أزورَها في شقَّتِها في اليوم التالي مساءً. فجئتُ إلى الرَّابيَة. وعندَما كنتُ أنتظرُها في الرَّدْهةِ الفسيحَةِ في منزِلِها الخُرافيِّ الذي يَنِمُّ عن ثقافةٍ فنيَّةٍ ذات مستوىً رَفيع.. تَجلَّت أمامي فجأةً كأنَّها رُؤيًا.. أو رُوحٌ منَ الغَيبِ يَمْتزجُ فيه الوقارُ الغَربيُّ بالسّتايل الشَّرقِيِّ الأنيق. وبدا واضحًا أنَّ صَبغةَ الشَّعر لم تُخْفِ زَحْفَ الشَّيبِ إلى الشَّقارِ الذَّاوي. وبالرَّغمِ منَ التَّجاعيدِ الطّفيفة فالتَّبَرُّجاتُ أحيَتْ جاذبيَّةً من شبابِها الآفل. وهَيبَةُ طلَّتِها

تَشِي بأنَّها كانت امرأةً جميلةً جدًّا. إيميه جَبُّور امرأةٌ مثيرَةٌ للجَدَل حقًّا. ثمَّ قالت لي بصَوتٍ رُجُوليِّ النَّبرَةِ، يَنمُّ عن إرادَةٍ حازمةٍ صلَبَة:

– سيِّد صَخر.. تَفَضَّل معي إلى المكتب أرجوك. وأشارت لي بيَدِها في الاتّجاه المَقصود.

خطَوتُ أنا أوَّلاً خَطوتَين وَوَقَفتُ.. ثمَّ دَخلت وَرائي.. وتصافحنا وتعارفنا. طلبَتْ لي فنجانَ قهوة، وجلسَتْ مقابلي أمامَ مَكتبِها يَفصلُ بيننا طاولةٌ مربَّعَة زُجاجيَّة مُنخفضَة ذات خطوط سَوداء وذهبيَّة. كانت ديكوراتُ المَكانِ ساحرَة في كونتراست بَديع بين الألوانِ الباردَة والخَشَبيَّات السَّوداء، والخطوطِ الذَّهبيَّةِ العاموديَّة. كنت أتوقّع أن تعطيَني فرصةً للكلام لأشرحَ لها عن "سبَبِ" زيارَتي، فأعرضَ عليها نوعَ خدَماتِنا. ولكنّي فوجئت بأنَّها لم تفعَل..! وراحَت تتحدَّث إليّ كأنَّها ترجو لقائي منذ زَمَن.. أو كأنّي مَنفِذٌ لمَتاهَةٍ، أو انِّي هبَطتُ عليها منَ السَّمَاء حَلاًّ لقضيَّة. قالت لي مباشرةً كأنّها تُبرمُ صَفقة:

– لا يَهُمُّني الرَّقمُ البَتة يا سيِّد صَخر.. سأعطيك ما تُريد منَ المال.

– أنا رَهنُ إشارتِكِ سيِّدَتي. قلتُ لها من فوري.

قرَّبَتْ لي علبةَ سكائِرها، وقالت:

– سيكارَة؟

– شُكرًا.. أفضّل أن أدخِّنَ من سكائري.

وسَحَبتُ علبَتي من جَيبي، وأشعلتُ سيكارة. ثمَّ تابعَتِ الكلام:

– هناكَ ثأرٌ قديم، قديمٌ جدًّا.. بَيني وبَينَ غَيث الرَّاسي.. وأنا أريدُ قاتلاً مأجورًا!

وَقعَتْ كلماتُها عليَّ وقوعَ الصَّاعقة! جَفَّ الدَّمُ في عُرُوقي، وَشَعَرتُ للَحظَة بأنَّ دِماغي تخَدَّر. لقد طلبَتِ الأمرَ عينَهُ الذي طلبَهُ منِّي غَيث! وهَل هذا مَعقول؟! أيُّ مأساةٍ مَلهاة هذه؟! أيُّ ثورَةٍ حاقدَةٍ مُختبئة في قلبِ كلٍّ من المُهندِسَة والاقتِصاديِّ الكبير؟! وأيُّ قدَرٍ

ساخِرٍ هازِلٍ حتى جعَلَني الحَجَرَ الواحدَ الذي أردَى العُصفورَين في نهايةِ المَطاف!! أتُراها تَحقيقٌ لكلماتِ النُّبُوْءَة.. نبُوْءَةٍ وَفاء على صَفحَةِ غلافِ الإنجيل؟

– ولكنِّي لستُ قاتلاً مأجورًا!! أنا رَجُل أمنٍ وحِماية! هذِه مِهنَتي.

أجَبْتُ من فوري، مُحاولاً التَّملُّصَ من طلبِها. فتَابَعَتْ حَديثَها:

– سأعطيكَ رَقمًا خَيَاليًّا.. مليونَي دولار.. ومُرَشَّحَة للزِّيادَة.

تكلَّمَتْ كأنَّها لم تسمَعْ ما قلتُهُ لها. هذا وَنغمَةُ صَوتِها مُدَوزنَة على مفتاحِ الحِقدِ العَميق الذي تئِنُّ به أحشاؤُها. فكَّرْتُ للحَظاتٍ كأنَّها دَهر، ثمَّ قلت:

– هذه لن أنجُوَ منها البتَّة يا سيِّدَتي. فقالت لي على الفور:

– خمسة ملايين دولار كافية لتَجْعلَكَ حُرًّا طليقًا. فتُنشِئَ شركةً أخرى في الخارج. وأنا أعرف جيِّدًا أنَّ مِظلَّتَكَ السِّياسيَّة من حَديد.. فيما لو افتُضِحَ الأمر! قالت وعَيناها تومضان في خُبثٍ وَدَهاء.

– لن أعطيَكِ جَوابًا سيِّدَتي.. سآخذُ وقتي في التَّفكير. وأريدُ وقتًا كافيًا.

قلتُ هذا.. مُحاولاً إبقاءَ نافذة التَّواصُل مفتوحةً بينَنا. ولكنَّ اللَّقطةَ الطّريفة التي علِقتُ بها.. أنِّي أصبَحتُ العُقدَةَ الوسطى في الحَبلِ بينَ فَريقَين، يَشُدُّ كلٌّ منهما في اتِّجاهٍ مُعاكس. الاثنان يريدان قاتلاً مأجورًا! والاثنان هما القاتلُ والمَقتول! والمُضحِكُ المُبكي في آنٍ معًا.. أنَّ الاثنَين يَطلبان منِّي أن أكون أنا أداةَ هذا التَّقاتُلِ الثأريِّ المَجْنون! كنتُ في موقفٍ لا أحسَدُ عليه. شعَرتُ ببُركانٍ يَمُورُ في أعماقي.. كأنَّ القدَرَ اختارَني أن أقتلَ هذين الحَاقدَين المُزمِنَين.. تنفيذًا لإرادَتِهما، فيَكون والحالة هذه حِقدُهُما هو قاضِيَهُما. وَأمّا وَضعي النَّفسِيّ في تلكَ اللّحظَة، صدِّقني أيُّها المُحقِّق، لا يَرقى إليه وَصْفٌ أو بَيَان. كنتُ مُكتئبًا.. تائهًا.. وَضَعيفًا جدًّا.. كضَعفِ المُتَّهَمِ أمامَ قاضِي المَحكمَة. داخلني شُعورٌ مُخيف بأنَّ إيميه جَبُّور هي حَجَرُ الزَّاويَة.. والقِطعَةُ المَفقودَة التي لن تَكتمِلَ لوحَةُ اللُّغز بلاها. وها قد وَصلَتُ إليها قبلَ أن أتحقَّقَ من خَلفيَّةِ وهُويَّةِ غَيث الرَّاسي. ثمَّ سَألَتْني وقد رَأتْ جَبيني يتَعَرَّق:

– ما بك؟ أخائفٌ أنتَ حقًّا؟

– المَوقفُ مَهيب يا سيِّدَتي. أجَبتُها وأنا أحاولُ أن أهدِّئَ أعصابي بمَجَّةٍ من سيكارَتي.

بقيَتْ هي صامتةً.. وأنا أيضًا.. وكلانا يُعارِكُ سيكارَتَه. ثمَّ وصلَتِ القَهوة. سألتُها.. والمَوقفُ يَحتاجُ منّي توَغُّلاً واكتشافات. ولسانُ حالي تمامًا كالجُندِيّ في بدايةِ المعركة، وهو لتوِّهِ بدأ يقرأُ خارطةَ المَواقِع العَدُوَّة. نظَرْتُ في عَيْنَين حُلوتَين ذاويَتَين، أكسبَتْها التبَرُّجاتُ مزيدًا منَ الرَّونق والجَاذبيَّة وسألتُها:

– ما حِكايتُكِ معَ غَيث الرَّاسِي بالضَّبط؟

وَشَرَعَت إيميه تقُصُّ عليَّ حكايةَ حُبِّها معَ غَيث منذ أيَّام شَبَابِهِما. وكيفَ تعلَّقَتْ بهِ لدَرَجَة الهَوَس، وكيفَ قادَها الحُبُّ القويُّ إلى اللذَّةِ المَحرَّمَة في سَهْوَةٍ غافلةٍ منهما ضَعيفة.. وكانا متواعِدَين على الزَّوَاج. وفجأة! تبَخَّرَ غَيث.. رَحَلَ إلى العَدَم.. وانتَهَى الحُبُّ نهايةً تافِهَة بعدَ أن كانَ في الذُّرْوَة، ليُخلِّفَ ورَاءَه دَمارًا وفَسَادًا استغرَقَ منها سَنواتٍ شاقَّة لإعادةِ التَّرميم. لقد باعَ غَيث إيميه بطمُوحِهِ الجَّامِح، وبَعثرَ أحلامَها، وَسَرقَ منها باكورةَ عَوَاطِفِها اللَّطيفة، ومسَخَ الرُّجولةَ في نظَرِ أنوثتِها الجَريحَةِ شَيْطانًا رَجيمًا. ولكنَّها لمْ تُشْفَ قطّ من عبَثِهِ المتوَحِّش في حَياتِها.. ومعَ كلِّ هذا العُمْر! كانت إيميه تتحَدَّثُ والغَصَّة تُغلِّفُ كلماتِها بإيقاعٍ قاتم. قالت لي:

– أروي لكَ قِصَّتي معَ غَيث لتَفهَمَ جيِّدًا أنَّ قضيَّتي مُحِقَّة.. ولي عندَ غَيث الكثير الكثير.

– ماذا فعَلتِ بعدَ ذلكَ؟ سألتُها.

– لقد خلَّفتُ طِفلي سِرًّا. وكنتُ عازمَة على قتلِهِ جَنينًا! أمِّي رَفضَتْ. لقد أخذَتْهُ إلى مَيْتمِ راهباتِ العازاريَّة في برمَّانا، ولا أدري لماذا.

– ما اسمُ والدَتِكِ سيِّدَة إيميه؟ سألتُها أيضًا والنَّارُ تزدادُ اشتِعالاً في قلبي.. وَجسَدي مَحْمومٌ يتَعرَّق.

– وَفَاء. أجابَتْ.

عندَ هذه الكلمَة.. انفجرَ البُركانُ في داخلي! وبلَغت توَتُّراتُ نفسي حَدَّ الجُنون! لقد أرَدتُ أن أصرُخَ في وَجهِها وأعلنَ لها حَقيقة ذاتي.. أنا هو فتى المَيتم.. أنا هو الطّفلُ الذي كانَ ثمرَةَ حبِّكِ الجَريح، وثمَنَ آلامِك الطّويلة. حضرَني فجأةً سؤالٌ غريب! قبل أنْ أقولَ لها من هو الذي يَجلسُ قبالتَها ويُحادثُها، ويَستمِعُ بعُمقٍ ويتذوَّقُ سَقيطَ زُبدَةِ أوجاعِها، كأنّه وَحيٌ آسِر.. وإلهَامٌ غَيْبيٌّ آمِر! يُريدُ أن يرسُمَ طريقًا أخرى لهذِهِ المأساةِ المُزمِنَة. سَألتُها:

– ماذا لو ظهَرَ ابنُكِ في مكانٍ ما في هذِه الدُّنيا؟ وجَمَعَتكما الصّدفة!

فأجابَتني بقسَاوَةٍ مُرَّة.. وثورَةٍ حاقدَةٍ لم تُبقِ في ذاتِها نَسمَةَ رقَّة.. كأنَّها امرَأةٌ من حَديد:

– لا سيّد صَخر. لقد كانَ طِفلي جزْءًا من جُرْحي.. وهو من مُخلَّفاتِ نجاساتِ غَيث في حياتي. لقد "كَنسَلتُهُ" من ذاكرَتي منذ أن أخَذَتْه أمِّي وَفَاء إلى المَيْتم. حتى لو كانَ رَجُلاً ذا شأن.. هذا قدَرُه وهذا قدَري أنا. لن أسعى إليه أبدًا. لقدِ انتَهَتِ الحَيَاة. وهل أصَدِّقُ أنا إنسانًا آتيًا منَ المَجهول، بعدَ كلِّ هذا العَمْر، ليَدَّعيَ بأنَّهُ ابنِي؟!

كانت هذه الكلمات كافيةً لتدمير ما بَقِي في قلبي من رَجاءٍ أيُّها المُحَقِّق. اكتشَفتُ لتَوِّي بأنِّي كنت أعيشُ حُلُمًا.. أمَلاً كاذبًا. لقد حَطّمَتْ مَحدَلةُ الحِقدِ وشهوةُ الانتقام بُقيا دوافعَ إنسانيَّةٍ خيِّرَة. وتحوَّلَ التَوَتُّرُ النَفسيُّ فجأةً إلى سَخطٍ وَخَيبَةٍ غاضبَة. لقد مَسَخَتِ المشاعرُ الانتقاميَّةُ الحُبَّ وعاطفةَ الأمومةِ والغفرانَ إلى دُمًى وعَبَثاتٍ مُضحكَةٍ على هامشِ التَّجربةِ الإنسانيَّة. كيف يمكنُ لأمٍّ أن تذعِنَ لأمرِ الثأر وتتمرَّدَ على أنوثتِها وأمومتِها؟! كنتُ أمامَ إيميه متمالكًا.. وفي داخلي رَفضٌ واستنكارٌ وحُزْنٌ عَميق. لم أسألها شَيئًا بَعدَها.. بَقيتُ صامتًا.. شَبَحًا آدميًّا نِصفَ حَيّ.. أسمعُها ولا أعي كلامَها.. وأهزُّ برأسي موافقًا على ما تقول. شربتُ قهوَتي.. وكانت هي تمُجُّ الدُّخانَ من سيكارَتِها الطّويلةِ الدَّقيقة، وتتحدَّثُ كأنَّها حاصلة على مبتغاها بشَكلٍ حَتمِيّ. ثمَّ انتَهَتْ أخيرًا من الكلام.. فقلتُ لها:

– أحتاجُ لأسبوعَين للتَّفكير والتَّخطيط سيِّدَة إيميه.

ورَدَّتْ هي:

– ليكن لكَ ما تُريد.

ثمَّ استأذنتُها وانصرَفت.

خرَجتُ من عندِها وأنا أغرَقُ في دوَّامَةٍ من الاحباطِ رَهيْبَة. ما كان يخطرُ لبالي قطّ أن تكون نهايةُ النَّفق جدارًا أسودَ عَظيمًا. يا لها من خَيْبَة! كانَ الفرَحُ يتدفَّقُ في قلبي كلَّما فتَحْتُ إنجيلَ وَفَاء وقرَأتُ الاسمَ، على صَفحَةِ الغلافِ منَ الدّاخِل، النُّبُوْءَةَ اللَّعنة! ما كنتُ أحسبُ نفسِي قطّ أنّي نتيجَةُ معادلةٍ عَرْجاءَ.. جمَعَتْ بَينَ نَقيضَين في صدفةٍ ماردَة. لقد رَمَيا، إيميه وَغَيث في تواطؤٍ غير مُعلَن، ثمَرَةَ النَّزْوَةِ العابثة في ذلكَ المَيْتَم الموحِش غيرَ آسِفَين.. غير مُكترثَين. إذا كانت إيميه جَبُّور غيرَ عابئةٍ بمَصيرِ وَليدِها.. أتُرَى غَيث فاعل؟ حتمًا لا. لقدِ انجَلَتِ الحَقيقةُ لي كاملةً، وكانت مُرَّةً قاسيَة!

– وإذًا غَيث الرَّاسي والدُكَ الحَقيقيّ يا صَخْر.. وإيميه جَبُّور هي وَالدتُك؟

قاطعَ المُحقِّقُ كلامَ صَخر بسُؤال، وراحَ هذا الأخير يُشعل سيكارَةً. وأضافَ المُحقِّق:

– وكلٌّ منهُما طلبَ منكَ قتلَ الآخر.. جَميل، جَميل جدًّا! ولأنَّهُما لا يَكترثان لأمرِكَ نفَّذتَ طلبَهُما.

عادَ صَخْر وتابعَ روايتَه:

– فهمتُ الآنَ كلَّ شَيْء.. وانتابَني اكتئابٌ لا يوصَف أيُّها المُحقِّق. لقد فكَّرتُ كثيرًا بهما.. أجَل، فكَّرتُ بأبي وأمّي. فكَّرتُ بحُلُمي الضَّائع ووَحشَتي الخائبَة. وقادني الاستنتاجُ إلى أنَّه ولو أرَيتُهُما الأدلَّة والبيِّنات على كَوني ابنَهُما.. سيَرفُضانَني بتُهمَةِ أنّي مُحتالٌ مُدَّعٍ! هما ثريَّان والطَّامعون الحاسدون كثار. تلكَ هي نِهايةُ المَطاف.. وأسَفاه! هذا وأصبَحَتْ شَهوةُ الانتقام الظّالمَة تلكَ السَّمكةَ الكبيرة التي ابتلعَتِ الصَّغيرات. وبعدَ أيَّامٍ ولياٍل من الصِّراع والتَّفكير الكثير، وللمَرَّةِ الأولى منذ الطُّفولة.. بَكَيْت! أخذتُ قراري بتَنفيذِ إرادَتِهما. وإذا كانَ كلٌّ مِنهُما يريدُ التَخلُّصَ منَ الآخَر، فليَفعَلا هما هذا الأمر، وليَقتُلْ واحدُهُما الآخرَ بسِلاحِهِ!

– وهكذا بدا الأمرُ كأنَّها "شِبْهُ انتِحَارٍ مُتبَادَل" وتَصفيةُ حِسَابٍ بَينَ حَبيبَين قديمَين! قالَ المُحقِّقُ شَكيب لصَخر سويدان.

وتابعَ صَخر كلامَه أيضًا:

– لقد وَضَعتُ خُطَّةً لدَفعِ كلٍّ من غَيث وإيميه أن يقتلَ واحدُهما الآخر. وأبقى أنا مجرَّد أداةٍ.. أو مُستَخدَم.. كلمَةِ مرور.. خِدمَةٍ لوجستيَّة لا أكثر. وكَانت خُطَّتي شبهَ ناجحَةٍ لولا تدخُّلُ عُنصر آخر مفاجئ لم احسِبْ له حِسَابًا.. ولكنَّه كانَ عامِلاً مُفيدًا.

– أنتَ رَجُلٌ ذكيٌّ يا صَخر.. ما هي هذه الخُطَّة الجَهنَّميَة التي وَضَعتَها؟

سألَ المُحقِّقُ وعيناه جاحظَتان نحو صَخر، بل كلُّ حَواسِّهِ في حالةِ يقظة، لسَماعِ خاتمةِ هذه الحكاية التي اتعَبَهُ طولُ سَرْديَّاتِها. وتابعَ صَخر:

– المَطلوبُ حَتْفٌ غيرُ مباشَر لغَيث على حَملِ سلاحِه والذّهاب إلى إيميه وقَتلِها. وأيضًا حَتْفُ إيميه على حَملِ سِلاحِها والذَّهاب إلى غَيث وقتلِه.. هكذا بكلِّ بسَاطَة! المُعطى واضِح. وأنا المُخرجُ المُتواري وَرَاءَ كواليسِ الجَريْمَة.. أراقبُ الأدَاء. فإذا حدَثَ خطأ ما، هذه مِهنَتِي وأنا بارعٌ فيها، أخرُجُ من مَخبَئِي وأصَحِّح الخَطأ معَ تعديلاتٍ في عناصِرِ مَسرَح الجَريمة لتبدُوَ إطلاقَ نارٍ مُتبادلاً. ولكن.. لم يكن هناك داعٍ لتدَخُّلي البتَّة. لقد اشترَيتُ خَطَّين وهاتفَين خصِّيصًا لهذه العَمَليَّة، ثمَّ أمَرتُ رجالي أن يَخطفوا ابنَ غَيث من زَوجتِه اللُّبنانيَّة التي تزوَّجها في لبنان وأخذَها إلى أميركا، زَيد وَعُمرُه ١٥ عامًا. وأمَرتُ بخَطفِ ابنةِ أختِ إيميه أيضًا، تلكَ الصَبيَّة الذَّكيَّة جُمانَة التي تعملُ في شَركةِ إيميه جَبُّور وعمرُها ٢٤ عامًا. وأرسلتُ رسالتَين على تطبيق الواتسآب لكُلٍّ من غَيث وإيميه. رسالة إلى غَيث على الخَطِّ الأوَّل، أقولُ فيها: "ابنكَ زَيد مَعِي وهو بحالةٍ جيّدَة، تعالَ لنتَفاهم. المكانُ هو البَيتُ المَسكون فيلاّ شَلهوب النَقَّاش، والزَّمان اللَّيلة السّاعة التاسعة مساءً، إيميه". ورسالة ثانية على الخَطِّ الثاني إلى إيميه أقولُ فيها: "ابنةُ أختِكِ جُمانَة مَعِي وهي بحالةٍ جيِّدَة، تعالَي لنتَفاهم، المكانُ البَيت المَسكون فيلاّ شَلهوب النَقَّاش، والزَّمان اللَّيلة السَّاعة التاسعَة مساءً، غَيث". ثمَّ رَمَيتُ الهاتفَين من فوري في مستَوعَبِ القُمَامَة. لقد استَدرَجتُهُما إلى تلكَ الفيلاّ الصَّفراء المَحْرُوقة

والمَهْجُورَة منذ زَمَن، والتي يُقال أنَّها مَسْكونة، في وَسطِ ذلكَ البُستانِ القبيح المُحاذي للطَّريق العامّ. كنتُ واثقًا من نجاح خُطَّةِ الاستدراج هذه، وكانَ رِهاني على اتِّقادِ الحِقدِ في قلبَيْهِما رابحًا. الحِقد.. والحِقدُ وَحدَه سيَدفعُهُما ليُواجِهَ واحدُهُما الآخر.. وبالتالي ليقتُلَ واحدُها الآخر. وجئتُ أنا قبلَ ساعة، بلباسٍ عاديٍّ بسيطٍ كي لا أجذبَ الانتِباه، ومُسدَّسي تحتَ جَوْرَبي الأيسَر. ركَنتُ سيَّارتي بَعيدًا في موقفِ السيّارات، وتسلَّلتُ إلى داخلِ الفيلاّ.. ليسَ عبرَ بَوَّابتِها الحَديديَّة المُهترئَةِ لجهةِ الطَّريق، بل من الخَلف حيث قفَزْتُ فوقَ السُّور الخَفيض، وهَرْولتُ في الحَديقةِ المبَعثَرَة إلى الدَّاخل. كانَ ضَوءُ البنايةِ المُجَاورة ومصابيحُ الشَّارع القويَّة تفسِحُ في المَجالِ للرُّؤيةِ داخلَ هذه الفيلاَّ التي ليسَ لها أبوابٌ ولا شَبابيك. وقبَعْتُ في مكاني أعُدُّ الدَّقائقَ والثَّوَاني أنتظرُهما.

– ولكنَّكَ لم تَنْجُ من كاميرا السُّوبرماركت قربَ محطَّةِ الوُقود التي صوَّرَتك قبلَ ساعة من حدوث الجَريمَة. قالَ المُحقِّقُ شكيب لصَخر. بَقِيَ صَخر ساكتًا، وأضافَ المُحقّق:

– كنتُ أعرفُ علاقتَكَ بغَيث، ودَوْرَكَ في لُعبَةِ الأمنِ والحِمَاية. ولذا بدأتُ أتحَرَّى عنكَ. ووُجودُكَ في ذاكرةِ كاميرا محَطَّةِ الوقود عَزَّزَت شُكوكي من نَحوك.

عادَ صَخر وَتابعَ الكلام.

– رُحتُ في مَكاني أشعلُ السّيكارَة تلوَ السّيكارَة، وآتي إلى الشُّرفةِ المُطلَّة على الشّارع، ثمَّ أنظرُ منَ النَّوَافذِ المَحْرُوقة. قلتُ في نفسي: "إذا كانَ هذا البَيتُ مَسكونًا برُوْحٍ شِرِّيرة.. فهو مَسكونٌ بي أنا.. فأنا الآنَ الشِّرِّيرُ الوَحيد في هذا المَكان. وعَمَّا قليل سيَكون مَسكونًا بأرواحٍ شِرِّيرَةٍ ثلاث". بدأتْ تمطرُ مطَرًا خَريفيًّا خَفيفًا، وتوارَتِ النُّجُومُ ورَاءَ الغُيوم كأنَّها خائفة ممَّا رَأتهُ قبلَ حُدُوثِه! وما هي إلاّ نصفِ ساعَة حتى رأيتُ غَيث ماشيًا بهدُوءٍ على الرَّصيف.. وقفَ قليلاً قربَ البَوَّابة.. ثمَّ تابعَ إلى حيث قفَزْتُ أنا. ولكنَّ غَيث ليسَ شابًّا. حاولَ المِسكين مَرَّتَين وفي الثالثةِ وثبَ ووَقعَ على ظهره في الحَديقة. ثمَّ نفضَ الأوساخَ عنهُ ومَشَى.. دَخلَ وَصَعدَ إلى فوق.. ووقفَ في وسَطِ الرَّدْهةِ المُضَاءَةِ منَ الشُّعاعاتِ الخارجيَّة. وأمّا أنا فكنتُ مُختبئًا في إحدى الغرفِ المُظلمة، صامتًا صَمْتَ القبور. كانَ غَيث بلباسٍ رياضِيٍّ هو الآخر.. جينز واسبدرين

وقميص مضلَّعَة، وكانَ متَجَهِّمَ المَلامِح. ثمَّ راحَ يمشي جيئةً وذهابًا وخطَوَاتُه لا تُحدثُ أيَّ صَوت. وفجأةً! سمِعْتُ ضَجيجَ البَوَّابةِ الخارجيَّةِ الخافِت، ثمَّ خَطَواتِ كعبِ حذاءٍ نسائِيٍّ في المَمشى الخارجيّ عبرَ البَوَّابةِ الحَديديَّة. نادَى غَيث لإيميه:

– أصعَدي إلى هنا يا إيميه.. هنا يَستطيعُ أن يرَى واحدُنا الآخر في الضَّوْء.

وهكذا وقفَ الاثنان في الرَّدْهةِ المُضيئَةِ، وَجْهًا لوَجْه، تُحيطُهُما الظُّلمةُ من كلِّ ناحيَة.

كنتُ أترقَّبُ حُدوثَ الأخطاء، لأتدخَّلَ وأنهي المَسألة كما أريد بسِلاحي. كنتُ أتلصَّصُ من رُكني على أحداثِ خاتمَةِ هذه المَلحَمَةِ العَظيمَة. سَحبَ غَيث سلاحَه من وراءِ ظهرِه وشهَرَه بوجهِ إيميه وقالَ:

– لا دخلَ لابْنِي بحِسَاباتِنا يا إيميه جَبُّور.

وقالت إيميه وهي تسْحَبُ سِلاحَها من تحتِ كُمِّها الأيسَر:

– بل لا دَخلَ لابنةِ أختي بحِسَاباتِنا يا غَيث الرَّاسي.

كانَتْ توقُّعاتي تُنبئُني بأنَّ إيميه ستطلقُ النَّارَ أوَّلاً لأنَّها هي السَّاعي الأوّلُ إلى الثّأر. وهي حتمًا لن تُصدِّقَه في ما يقول عن ابنِهِ زَيد! قالت له بنَبرَةٍ مِلؤُها الغَيظُ وَالمَرارة:

– لقد أفسَدْتَ حَيَاتي.. لقد دَمَّرتَني يا وَحش!

ثمَّ حدَثَ شِجَارٌ عنيفٌ وسُبابٌ لدَرَجةِ الصِّياح. أعتقِدُ انَّه لو سمِعَ واحدٌ منَ المارَّةِ على الطَّريق هذا الصِّياح.. لظَنَّ أنَّ فيلاً شَلهوب في النقَّاش مَسْكونة حقًّا.. وأطلقَ لرجلَيْهِ العِنان! ثمَّ صرَخَت إيميه:

– كفى يا غَيث.. لن أجادِلَك فأنا جئتُ لأقتلَكَ.

وأطلقتِ النَّارَ عليه. رأيتُه أنا سَقطَ ولم يَمُتْ! لأنَّه أطلقَ النّارَ عليها هو الآخر وهو على الأرض، وأصابَها وأرداها مباشَرَةً. كانت مُمَدَّدةً على الأرض بلا حِراك. ولكنَّ غَيث راحَ يئنُّ ويَزْحَفُ إلى الجِدار ويُحاولُ أن يقِف. سَحَبتُ سِلاحي لأحمِيَ نَفسِي، وتسَلَّلتُ مِنْ مَكمَني قاصدًا إلى مُسَدَّسِ إيميه لأقتلَه به.. فسَمَّرَني في مَكاني صَوْتُ

خَطَواتٍ حذِرَةٍ على الدَّرَج بَطيئةٍ جدًّا.. لقد فضَحَها الحَصَى والأتربَةُ على الأرض. عُدتُ إلى مَخبَئِي في الظُّلمَة. ورأيتُ الوافدَ الجَديدَ في قلبِ المَشْهَد.. وقفَ في وسَطِ الرَّدْهةِ.. تأمَّلَ في جثَّةِ إيميه.. ثمَّ راحَ ينظرُ إلى غَيث الزَّاحِف إلى الجدار. اقتربَ وأخذَ مُسَدَّسَ إيميه، كأنَّهُ قرَأَ أفكاري!! واقتربَ من غَيث ليَرى غَيث وَجْهَهُ جيِّدًا..

– الفنَّانة رُوْجا.. روجين آتشي! أليْسَ كذلَك؟ سألَ المُحَقِّقُ.

– صَحيح.. وقالت روجين لِغَيث:

– أنظرْ إليَّ جيِّدًا يا غَيث الرَّاسِي.

وَصَارَ غَيث ينظرُ في ملامِحِها جيِّدًا.. لدَقيقة.. ثمَّ تَمْتَمَ بهُدُوْء:

– رُوجين.. روجين آتشي؟!

فقالت له:

– ذكيّ.. دائمًا كنتَ ذكيًّا.. لقد حَزِرْت. وأنتَ تعرفُ جيِّدًا أنّي جئتُ إليكَ لأنهيَ حِسَابَنا القديم.. القديم جدًّا يا غَيث. ويَبدو أنَّ عَشيقةً سِوَاي سبَقَتْني.

ثمَّ أطلقَتْ عليه رصاصةً واحدَةً في صَدْرِه وأرْدَته قتِيلاً. وَعادَتْ ووَضَعَتْ المُسَدَّسَ في يَدِ إيميه. تمامًا كما كنتُ سأفعَل أنا.

وقاطعَ المُحَقِّقُ كلامَ صَخر أيضًا:

– وسلَّمَتْ روجين نفسَها للدَّرَك في اليَومِ التَّالي.. ولكنَّ غَسَّان الجُردي أخرَجَها بعد أيَّام. واتَّصلَ بي الوَزير بعدَ أسبوعين ليَقولَ لي:

– هذه القَضيَّة أقفِلَتْ.. أوقِفِ التَّحقيقَ فَوْرًا.

فقالَ صَخر:

– والسَّبَب، وهكذا دائمًا، وهذا من حُسْنِ حَظِّي أيضًا! أنَّ هذه الحادثة ستُنَسِّلُ خيُوطًا كثيرةً من أسرار غَيث وعُمَلائِهِ من رجالِ الاقتصاد والسِّيَاسَة، وبينهم غَسَّان الجُردي

من جهةِ علاقتِه بالفنَّانة رُوجا. ورُوجين سلَّمَتْ نَفسَها لحِمايَتي أنا أيُّها المُحقِّق.. وغَسَّان الجردي حَرَّرَها.

وقفَ المُحَقِّق شَكيب مْدَوَّر وسيكارُه بيَدِه، وقالَ وهو يُشيرُ بيَدِهِ ليَستَوقفَ التَّاكسي:

– هذه القضيَّة انتهَتْ سِيَاسيًّا.. وربَّما قانونيًّا يا صَخر سويدان.. ولكنَّها إنسَانيًّا لا نهايَةَ لها.. صَدِّقني.

– لماذا؟ سألَ صَخر، وقد قامَ هو أيضًا بعدَ أن غَمَسَ سيكارَتَه في المِنفَضَة.

– لأنَّ زَيد.. ابْنَ غَيث، أقسَمَ في حَفلِ الجنازَة، أنَّ دِمَاءَ والدِه لن تذهبَ هَدْرًا.. وسيكون الثَّمنُ غاليًا جدًّا. وأنا أجزُمُ لكَ يا صَخر سويدان.. أنَّ لسانَ حال ابنَةِ أختِ إيميه.. جُمانَه.. هكذا أيضًا. لأنَّهُما لم يُصدِّقا تلكَ الحادثةَ كما أخرَجْتَها أنتَ يا صَخر.. كما آخَرون ومِنهُم أنا. وَمَا فاتَ مَات.. وَمَا هو آتٍ آت.

فأجابَ صَخر مِن فَورِه.. كأنَّه قد درَسَ خاتمَةَ المأسَاةِ بإتقان:

– لا أيُّها المُحَقِّق.. لقد قطَعْتُ هنا رأسَ الأفعَى لكي لا تُنجِبَ مَثيْلاتِها. وها أنا أخبرُكَ بكلِّ شَيْءٍ بصَرَاحَة. وسوفَ أجْمَعُ زَيد وجُمَانَة في القريبِ العاجِل وأحدِّثُهُما بما أخبَرتُكَ بهِ أيضًا، وبأكثر تفصيل. هكذا يَرْتاحُ ضَميري، وأطفِئُ نارَ الأحقادِ المُتعَاقبَة، وأدفِنُ معَ غَيث وإيميْه الجُرْثومَةَ القاتلَة، فلا يُوَرِّثانِ الخَلَف خَطيئَةَ السَّلَف. لا يا سيِّدي الكريم، لن يكون هناكَ بَعدَ اليَوم ظُلم، لن يكون حِقدٌ ولا انتِقام، وهكذا تَركتُ النَّارَ تأكلُ نفسَها بنَفسِها. والأولاد سيَعيشون حَيَاتَهم ناظرين إلى المستقبل عندَما يَفهمون جيِّدًا كم كانَ الماضي بائسًا.

*****